أزرق

رواية

إيمان الخطيب

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: أزرق

المؤلف: إيمان الخطيب

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي

رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢١٢٨٤

الترقيم الدولي: ٦-١٩-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة — المدير العام

محمد عز الدين — **صبرينة غلمي**

+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧

beyond.dbh@gmail.com

إهداء

إلى كل قليلٍ يحمل بجنباته الجمال وكلّ كثيرٍ متشبع بالقبح،

إلى حياة قصيرة مهما أطالها القدر وموت صاخب مهما بالغ في الهدوء،

إلى كل لحظات السعادة وسنوات الخيبة...

أضع زرقة كلماتي وسمرة مدادي الأول بين أيديكم .

إستهلال

حين تتعثر خُطى الحياة، تعرقل كل من تسول له نفسه رفع رأسه خارج طبقته ويمنيها بالثراء دون ان تكون له جذور أصيلة تضرب في الارض فيخرج منها كعود متين لاينحني للريح، فتأتي دوماً الاقدار على غير هوانا فينال غيرنا ماتمنينا ونمني النفس بما ليس لها.

في خضم الصراع الضخم القائم بين الانا والمجتمع يتبلور الانسان ليحاكي صراع اضخم داخل متاهة العقل وكهف الروح المظلم وبئر النفس العميق فينتج لنا كائن هش داخليا مغلف بقشرة خشنة وستجد أقوي ما فيه هو" اللسان".

"اللسان" ذلك الملعون الذي تطلق حبائله رذائل تفتك بالقلب وتعصف بكل نقاء يحويه، هو أيضاً ذلك المحمود في حلاوة كلماته وإقناع كل مستمع لك بحسن المنطق، انه وجهان لعملة واحدة هي الاخلاق، وجه ينحر الفضيلة على فراش الغواية وبين كؤوس الرغبة، ووجه يغتال الرذيلة في قلب القبح معلناً صفاء الحياة.

لتتأرجح الجوارح بين هذه وتلك فتصبح " إنسان".

١

يناير ١٩٥٢، ملوي المنيا

ليالي الشتاء الطويلة المظلمة، يغزوها الغيث كجيش يزحف لإقتلاع أمان البيوت الصغيرة، في إحدى هذه البيوت المتهالكة تجاهد عائلة الفلاح البسيط في سد ثغرات الجدران والسقوف بقطع الخشب والخِرق، كمحاولة منهم لإنقاذايضا مكن إنقاذه من سيول المطر، لحظات وجلس الجميع بجوار" قصعة" النار يتمنون من نارها العجوز أن تعطيهم من أيامها القليل لتدفئهم، تنبعث أدخنة الحطب لتحلق فوق رؤوسهم فتغزو بحرارتها مسام اجسامهم النحيلة التي اكل منها عرقهم لتتشبع بطونهم من تلك الثمار التي يجنونها ولكن خيراتها تذهب حيث عنده.

لا يعرف للرحمة طريق ولا يلين قلبه برفع اصقال الوهن من فوق اجساد أكلت منها الحاجة لأجل تلك الحاجة الملعونة، لقبوه بقيصر الصقيع وتعامدت الدعوات في حلق السماء متجمعة على ان يبطش به القادر المقتدر كما يبطش هو بعباده في الارض.

وان من بين عباده ذلك الرجل الاربعيني الذي تميز بطول قامته وبنية جسده القوية واكتسب من الشمس سمرة الشقاء، هو الذي لم يكن يهاب في الحق لومة لائم (حسين خطاب) ماتت عنه زوجته لما كان في عقده الثالث فرحلت ورحل معها كل تلك الاماني المعلقة في صدور ابنائها اليتامى من ان ينتشوا جرعات الحنان المعتقة في عينيها، فباتت عفاف تبحث عن نسيج المشاعر في احضان كل امرأة حنون، اما عادل فقد تلبد صدره بقسوة من قسوة تحوي بطيها أمل البحث عن مرسى الحنان

الذي استحوذ عليه عامر صاحب القلب الملئ بالطيبة والحنان كقلب أمه.

استغل حسين خطاب شباب ولديه فصار يعملان معه في" أبعدية" أحد الاثرياء، والذي يقام في قصره الليلة حفل عيد ميلاد إبنته الوحيدة (ليلى) وقد قام كل الفلاحين للذهاب إلى هناك ليكونوا في خدمة المدعوين، بعد أن أنهيا سد كل الثقوب وتناولوا بعض الخبز الجاف والجبن تركا أختهم وأبيهم في المنزل وذهبا إلى القصر خوفاً من عقاب" الاقطاعي الثري".

قصر مهيب مقام على غرار القصور التركية العريقة، جدران ذات لون أصفر يسر الناظرين في أركانه تماثيل رخامية راقية، تحيطه حديقة كبيرة مليئة بزهور نادرة أتي بها السيد عزيز من رحلاته في اوروبا.

في خلفية القصر حديقة الفواكه ويحميها من الخارج سياج حديدي مرتفع، وينتصف السور باب عملاق يفوق السور ارتفاعاً وتخانة، ومن الداخل ينتشر الخدم في كل ارجاء الحديقة.

ها قد وصل عادل وعامر إلى القصر وهمّا بالدخول

يستوقفهما احد الخدم وقد بدأ على ملامحه الغضب قائلاً

- إلى أين أنتما ذاهبان؟

- جئنا لنكن في خدمة المدعوين بحفل عزيز بيك .

نظر اليهما الخادم بإحتقار

- أبتلك الملابس الرثة؟!

أنتفخت أوداج عادل وهَمّ بالهجوم عليه لولا توقف أخيه الاكبر أمامه ثم التفت وقال بهدوء للخادم

- نحن عمال في أرض(عزيز بيك السمري) وهو من طلب منا الحضور لنخدما ضيوفه.

رد الخادم :

- اذا عليكما الدخول من الباب الخلفي المؤدي الي المطبخ لا من باب القصر.

لملما الاخوان بعضهما وهم في قمة الحرج مما حدث وخاصة أن هناك الكثير من المدعوين شهدوا ماحدث.

تجنبا الاخوين نظرات كل الحضور ولم يشغلهم غير رؤية الرفاهية والترف داخل القصر.

تحف فنية لو اقتناها رجلا من بين هؤلاء الذين يسدون صراخ امعائهم بالنوم، لزوج بناته و اطعم فقراء القرية سنين طوال .

أولا يأتي علي هؤلاء القوم اصحاب البزخ والترف سنين عجاف؟!

عبارة قالها عامر لنفسه بينما كان يطالع موائد الطعام الممتدة على خصر الموسيقي الفرنسية، يعزفها رجل ارتدى قبعة سوداء اخفت عنا دهاليز الحس التي يعزف عليها تلك الانشودة.

في الجهة الاخري كان عادل يهتم بملابس النساء وفحش أنوثتهن التي تجلت الناظرين ماإن طالعت تلك المسام البيضاء فتلمع عيناه وكأنه يبتلع أجسادهن ويذهب معهن الي رحلة عبر الخيال بطلها فراش وشراب.

العقل يشرد والقلب ينبض ويشتهي عادل مع كل نبضة أن يعود به الزمان فتنشق احدي تلك البطون لتنجبه بذيلة عن بطن امه فيصبح مكان احدهم ويتعامل مع بعض بعضهم وينال من الاحترام والتقدير مالم ينالـه الان.

مشهد كلوحة لفنان عاش الرخاء فقام لينقشه.

يقف الرجل بعدما تسرول بأقمشة ندر وجودها فزاد سعرها فأصقله وزناً وقدراً علي قدر قدر ثروته، يهمس في اذن امرأة شابت فعابت ترتدي فستاناًلا يناسب عمر حفيدتها وتمسك بكأس ماإن فرغ ملأته تتعالي الضحكات والقهقهات وتعلم نفس عادل محدثة اياه بإن للحوار عنوان يكسوه التفاهة.

دقت اجراس الصباح فأنشق من بين احضان السماء نور خافت يكسر عتبات السواد ويأذن لليلل بالرحيل فيطالع عامر ذلك الشعاع المنبعث من السماء ويستنشق عادل تلك النسمات الصباحية بأنفاس تأمل في ان يحل الامل مكان البؤس.

يناظره عامر وكأنه يربت علي روح اخيه بأن ياخي لا تنزعج فإن كانت لهم حماية من حيث اموالهم فلنا الله، ربنا وربهم ورب اموالهم.

تعانقت تلك الخطوات التي طوت الارض من اسفلهم فأختزلت المسافات وشق الطرقة المؤدية الي غرفة المجلس، فيجدا أختهما تنتظرهما وما ان

جلسا حتي هرعت لتحضر لهم كوبان من الشاي ليتدفئا، ثم جلست جوارهما كي تسمع منهما ماشاهدوه في الحفل ككل عام،

بادر عامر بالحديث

- لا جديد في مارأيناه يا صغيرتي سوى أن ليلى أصبحت فتاه جميلة رقيقة، وخطت اعتاب الانوثة.

نظرا عادل وعفاف الي اخيهما ويحاولان اخفاء ضحكاتهما فهما يعلمون مدى عشق اخيهم لإبنة السيد عزيز، فقطعت عفاف لحظات الغرام بكلماتها: وماذا بعد ياخي؟ الي متي ستظل تكن لها كل هذا الغرام ولا تبوح به؟

اجابها بعد زفرة أعقبها ألم عنيف: أيناها مني ياختي وكيف تراني وأنا كلما وجدتها أبتعد حتي لايفضحني شوقي؟

اجابه عادل: لو كنت في مكانك لفعلت اي شئ لأفوز بقلبها، ثم أتمتع بمال أبيها الذي لا حصر له، ياله من زواج ذو منافع كثيرة.

رمقه عامر بنظرة كادت تحرقه وقال: انت شخص مادي لاتنظر الا لمصلحتك ولا تعبأ بمشاعر الاخريين.

قام عادل وهو يبتسم بسخرية ويقول: الاثرياء ليس لديهم مشاعر سوى لأموالهم فقط.

ثم ذهب كل منهما الي حجرته وبقت عفاف جالسة علي الارض تتحسر علي نفسها وجمالها اللذين خلقوا في الطين ولن تجد من يتزوجها سوى فلاح بسيط كأبيها واخويها لن يقدر على تلبية احتياجاتها كباقي البنات.

قبل ان يغفى الشابان قال عادل لأخيه: لماذا لم تقل لعفاف ان ليلى تم اعلان خطبتها على بن عمها؟

التفت اليه عامر وقال: هل تريد ان احرق قلبها كما احترق قلبي؟ يكفي أن ليلى من عمرها وستتزوج اما هي فلم يطأ قدم اي رجل بيتنا سعياً في خطبتها، نام الاخوة وفي قلب كل منهم غصة.

جاء الربيع فأزاح كل هموم الشتاء وجلب الافراح الي عزيز بيك، فقد أقام حفل كبير وهائل لزفاف ابنته ليلى وابن اخيه(شوكت) حفل ارقي واجمل من حفل عيد ميلادها، لكن في الجهة الاخرى من" السرايا" قلب ينفطر، عيون تداعبها الدموع، ورجل يودّع يمامته الصغيرة فلم يستطع عامر كبح نفسه عن ان يراها للمرة الاخيرة وهو يدعو الله أن يحفظها ويسكن ضجيج قلبه.

لشهور وضع نفسه في العمل المتواصل الذي يصل حد العبودية، يتقاضي أجور قليلة لا تأتي بقوت يومه ومعاملة سيئة وحياة مليئة بالاهانة والذل والهوان، الحاجة فقط هي من تجعلك تقف علي حافة الهاوية،اما ترمي نفسك بداخلها لتعتصرك حد الموت أو تبيع نفسك للشيطان.

٢

٢٣يوليو ١٩٥٢يوم أشرق بصباحه ولكنه ليس ككل صباح.

لا أحد يعلم أهو صباح مستنير أم صباح ملبد بغيوم المستقبل أم ليل لا ينجلي له صباح؟

- صباح الخير والدي العزيز.

كانت تلك افتتاحية هذا الصباح في منزل حسين خطاب، تلقاها حسين ولم يردها بيد أنه أشار بيده الي عامر بأن اصمت بينما كان يستمع هو الي بيان الجيش في المذياع.

لا احد يعلم ماسر تلك الابتسامة علي وجه حسين خطاب أهي تفاعلا مع نبأ انقلاب الجيش علي مليكيه ام لأنه ولأول مرة يحتضن المذياع بين يديه بعد ان تمنى شغفاً أن يقتنيه.

جاد الشيخ محروس بآلته الثمينة يهرع الي منزل حسين خطاب ومعه بعض رجالات البلدة ليزفوا اليه ذلك الخبر بشكل حصري.

ها قد بدأ الانقسام.

بادر الشيخ محروس الحديث متهللا: الحمدلله ازاح الله الغمة واعاد البلد لنا.

وافقه حسين خطاب وقال وهو يعتدل في جلسته: عندك حق يا شيخنا فكان هذا الملك فاسد يتعاون مع الاعداء ضد البلد.

- لا هذا كذب وتدليس، ان الملك رجل عظيم سليل عائلة صنعت مصر وجعلتها في القمة، ولا يعني انه اخطأ في بعض القرارات يكون جزاءه العزل والنفي.

تحدث الاستاذ عباس مدرس اللغة العربية بالمدرسة الابتدائية بشكل غاضب وكأن كلام الشيخ محروس وحسين خطاب سهام لهب صوبوها تجاه رأسه مباشرة، ولكن الحاج عبدالعال صديق حسين خطاب المقرب له رأي آخر فقام وهدأ من غضب الاستاذ عباس واعاده الي كرسيه ثم قال محاولا تلطيف الاجواء: لم يذق احدكم الشاي حتي الان وقد اصبح بارداً، ناولنا غيره ياخي وحاولوا الابتعاد عن الانفعال، فلنتحدث بهدوء.

صمت الجميع بضع دقائق حتي أتي لهم عامر بأكواب الشاي الساخنة وتلك المرة أصر الحاج عبدالعال ان يوزع الشاي بنفسه حتي لايبرد ثانية وكي يعطي فسحة من المرح قبل عودتهم للصراخ حول مايحدث ثانية، واقترب باحدي الاكواب من رجل صامت لم يشترك بالحديث معهم ثم قال: تفضل يا جرجس الشاي، لكن لماذا انت صامت هكذا وهذا على غير عادتك؟

المقدس جرجس حلاق ومجبر كسور أصابه الهم منذ ان علم الخبر نظر الي الحاج عبدالعال بنظرة فيها من الحسرة والانكسار مالاينطق به اللسان وقال: لقد حطمت هذه الثورة حلم طالما حلمت به وتمنيت يوماً تحقيقه.

نظر الجميع له بإهنمام واقترب منه الحاج عبدالعال وجلس الي جواره وهو يربت علي كتفه ويقول: عن اي حلم تتحدث يامقدس؟

ارتشف المقدس جرجس عده رشفات قبل ان يجيب : وددت أن انول شرف الخلاقة للملك ولو مرة واحدة قبل ان اموت.

لم يتمالك الجميع انفسهم من الضحك حتي الاستاذ عباس نسى حنقه لما حدث ووجد نفسه يقهقه بصوت مرتفع علي ماقاله المقدس.

دقائق وعاد المجلس لهدوءه وهنا تدخل العم فرحات مباشر مائدة الطعام لدي عزيز بيك بالسرايا ،يبدو عليه امارات الانزعاج والخوف فسأله حسين خطاب مابه اجاب : ان وظيفتي علي حافة الضياع، لقد أتت الثورة لتجعلني أجلس في البيت بجوار اولادي نستجدي الطعام.

حزن الجميع له فإن عم فرحات يعمل في السريا منذ ثلاثون عام وقد يزيد ولا يعرف غير السريا مكان للعمل، فهو لم يتعلم زراعة الارض او حسابات الاراضي والاموال كالاستاذ فانوس الذي يدير ابعدية عزيز بيك ويجلس طوال النهار في غرفة صغيرة مليئة باوراق الحسابات وايرادات المحاصيل وهو ايضا من يحاسب الفلاحين والعاملين بالسريا ويعطيهم اجورهم، والذي شعر بنفس معاناة عم فرحات في ان مهنته هي الاخري ستضيع قريباً لذلك فقد آثر الصمت مستمعاً لكل واحد بالمجلس دون التعقيب علي اي شئ.

قام الشيخ محروس من جلسته واخذ المكان ذهابا وايابا مفكراً ثم قال ذلك الشيخ الذي درس بالازهر وترعرع فكره بين الكتب والصحائف : نستخلص من جلستنا هذه ان ليس الجميع علي رأي واحد متفق، انكم اصبحتم مقسمين مابين مؤيد ومعارض ، ساخط وغير مبالي، وهذا يجعلنا جميعاً نيقن ان الاتي كما يحمل الحرية فهو يحمل في طياته أيضا عبودية ولكن هذه المرة لن يفلح احد في انهائها.

نظرة مستقبلية بعيدة وجدها الجميع في قول الشيخ محروس، فلم يستطع احد منهم ان يزيد علي حديثه حرفا، وبدأ بالانصراف واحداً تلو الاخر بشكل آلي دون النطق حتي بالسلام وكأن علي رؤوسهم الطير.

بعد مرور شهرين كان اهل البلد متهللين فرحين يرقصون في الشوارع وبالمقاهي وداخل البيوت، فقد أتى لهم المذياع بالبشرى وكأن السماء فتحت ابوابها جميعاً وألقت لهم بأسعد أقدارهم دفعة واحدة، اخيراً سيكون لهؤلاء البسطاء مورد رزق يضمن لهم حياة هانئة تعينهم علي العيش بكرامة.

سهر تلك الليلة حسين خطاب وابناءه عامر وعادل وعفاف يتحدثون مع أبيهم عن تلك البشرى فهم لم يفهموا بعد ماذا حدث، فأخذ حسين خطاب كوب الشاي من ابنته وهو يقول: الاصلاح الزراعي سوف يجعل لنا أرض تخصنا وحدنا، نملكها دون ان يكون هناك اقطاعي يأكل صحتنا ويبخل علينا بأجر يوافي شقائنا.

- ولكن يابي كيف سيكون لنا أرض وكل مانحن عليه يمتلكه عزيز بيك ومن يشابهوه من اكابر البلد؟

قالها عامر وهو يستجلب من ابيه مزيد من الشرح، فعاود حسين الحديث بروية حتي يتضح الامر للجميع: يابني سوف يتم استرداد هذه الاراضي من الاقطاعيين امثال عزيز بيك وسيعيدون توزيعها علي الفلاحين البسطاء امثالنا حتي يتسني لنا العيش من خيرها، وسوف نحيا اخيراً بدون سوط او عمل بدون اجر.

ردد عادل بصوت منخفض : وهل خمس فدادين يجعلنا نعيش حياة كريمة؟

سمعته عفاف وضجرت من ذلك النمرود الذي يسكن قلبه ولايقنع ابدا فنهرته قائلة؛ مابك ياخي؟ نحن لانملك اي شي ولو حتي قروش معدودة تجعلك تشتري قوت يوم واحد مابالك ان نكتلك خمس فدادين ثمنها الآلاف؟ حياتنا هذه كفيلة أن تريك اليأس في كل مكان، وحين يأتي الامل من اوسع الابواب نقول له أنت قليل ونريد المزيد؟ أقنع ياخي بما قسم الله لك كي يضع البركة فيه ويكفي انه حلالا ويشبع بطوننا وننام بعده هادئين البال.

وافقها اباها وعامر علي ماقالته، فلم يستصغ عادل حديثهم المثالي عن الرزق الطيب والاقتناع بأقل القليل حتي يباركه الله فتركهم وذهب الي فراشه يستدعى جميع شياطين الارض في عقد اجتماع عاجل بقيادة عادل حتي يتسني له مناقشة ماحدث معهم وكي يوجهوه الي طرقهم الخبيثة في التمرد علي الحياة البسيطة.

٣

تبدلت حياة حسين وابناءه كثيراً من الشقاء الي النعيم، وأصبحت أفدنتهم تدر عليهم من بيع محاصيلها مالا وفيراً وفي سنوات قليلة من استلامهم الارض أستطاعوا ان يعيدوا بناء بيتهم بالطوب الاحمر، واصبح للبيت طابق علوي، جهزه الابن الاكبر عامر لكي يكون مسكنه بعد ان يتزوج، أما عادل صار له أرض بعيدة عن والده كسبها من شراء اراضي الفلاحين النازحين الى المدينة، وعفاف تلك الجميلة تم عقد قرانها على فتحي ابن عم فرحات الذي نزل الي القاهرة للعمل في احد الفنادق واستطاع ابنه الاكبر فتحي الحصول علي وظيفة في احد المصانع وسافرت معه الى هناك حيث يستقر.

في إحدى الليالي جلس عامر وابيه يتحدثون فيما بينهم وقد اصبح البيت خال من النساء بعد زواج عفاف.

- لماذا لا تفكر في الزواج يابني؟

- وهل هذا الشأن سهل يابي؟

- ولما لا والفتيات كثير وكلهن صالحات لايعيبهن شيئاً.

- اذا قل لي من تستحق معاشرتي والاقامة في بيتنا وتكون أمينة وصاحبة خلق ودين.

- مارأيك في فاطمة ابنة صديقي عبدالعال؟

- لا اعرفها، انت تعلم ياأبي ان ممنوع علي النساء مخالطتنا او حتي رؤيتهن بدون حجاب.

- رأيتها في زفاف اختك عفاف هي قد تصغرها بعامين او ثلاثة ولكن يظهر عليها امارات انوثة طاغية.

قال جملته الاخيرة وهو يغمز لأبنه ثم ضحكا سوياً، عاد حسين ليكمل حديثه:

- اذن نزورهم يوم الجمعة بعد صلاة العصر ان شاء الله.

اجواء سعيدة واعلام الزينة رفعت فوق منزل عبدالعال وحسين خطاب، موسيقي تتصاعد الحانها عنان السماء، تتراقص عليها اقدام الخيول وتتشابك فيها العصا في رقصة صعيدية شهيرة(تحطيب) وفرس خاص يحمل العروس من بيت ابيها حتي بيت زوجها يكون دليله العريس، وتظل هذه الاجواء قائمة حتي يدخل العريس بعروسه ويخرج لهم(منديل الشرف) يحمل دماء بكارة العروس، احدى عادات العرس في الصعيد .

مرت الايام والشهور وأنجبت فاطمة طفلة جميلة أسماها عامر (ليلى) ليشعر ان حبيبته قريبة رغم بعد المسافات.

في منتصف عام ١٩٥٩ جال في خاطر حسين خطاب أن لا ضرر ان أقبل على الزواج ثانية، فقد شارف علي الكبر ولا يريد ان يموت وحيدا، ثم أن ابنته الوحيدة لاتسكن بجواره لترعاه وقتما يحتاجها، اذا

زوجة جديدة هي الحل الوحيد، فعرض الامر علي ابنه عامر ورحب بالامر كثيراً وقد رشح له السيدة (نعيمة) عمة فاطمة زوجته فهي ايضا أرمله ولم يرزقها الله بأطفال، قبل حسين بكلام ولده ولكن عادل اعترض علي تلك الزيجة خوفا علي ميراث ابيه ولكن حسين لم يشنع له وذهب ليخطب نعيمة من اخيها عبدالعال صديقه.

رغم عمرها الذي شارف علي منتصف العشرين قبلت نعيمة بالزواج من حسين صاحب الخمسين عاماً وكما قالت حين سألها أخيها القبول:" أقبل به واعيش في ظل رجل أفضل من العيش بظل حائط"، عاشت معه نعيمة حياة هادئة الي حد ما خالية من المشاكل الا من مضايقات عادل ابن زوجها لها، حيث انه يعايرها بعدم الانجاب وان أبيه تزوجها شفقة على حالها، فلم تجد سوى ابنة اخيها فاطمة تهرع اليها وتجلس معها تشكي لها حديث عادل، فتهون عليها مابها وتهدأ روعها، وتراوغ الحديث معها بعيداً عن المشكلة بآلام حملها الثاني والذي كانت تريد تأجيله لولا ارادة الله، فتبتسم نعيمة وتقول لها: أحمدي ربك، هناك من يتمني ولو طفل واحد فقط يؤنس عليه حياته.

بعد مضي ثلاث اشهر من الزواج بدأ علي نعيمة أعراض الحمل، خبر أسعد الجميع واحتفل به حسين كمن ينجب لأول مرة بعد طول سنين لم يحزن سوى عادل لان تلك السيدة ستنجب لأبيه طفل اخر يأكل نصيباً من ميراثهم بعد وفاة أبيهم.

لم يجد بدا من أن يتزوج هو الاخر فقد كره الحياه في بيت ابيه ولايريد ان يرى نعمية وذلك الطفل في بطنها يكبر يوما بعد يوم، واهتمام ابيه

الذي ازداد كثيرا بها فصار يدللها ويحرض كثيرا علي عدم ازعاجها بالقول والفعل حتي يرلد ابنه بصحة وعافية.

في مارس عام ١٩٦٠ تزوج عادل في اجواء هادئة لا حفل، لا موسيقي، ولا اي شئ به مراسم فرح، فإنه لايبزر امواله فيما لا يعود عليه بالنفع، فقد عزم علي ان يبني لنفسه بيتاً بعيداً عن بيت ابيه، بعد زواج عادل باايام أرسلت السعادة رسالة جديدة لعامر.

كان وقتها عائد عامر الي البيت بعد ان اشرف علي العمل في ارضه فرأى سيارة تدخل الى" سرايا" عزيز السمري، ذهب ورائها حتي يرى من الذي أتى بعد كل تلك الاعوام ليفتح ماأغلقته الثورة، خفق قلبه حين رأها تنزل من السيارة لازالت جميلة رغم أعراض المرض والهزل وايضاً الحمل، انها ليلى حبه الاول الذي ظل حبيس قلبه سنين وسنين، اختفى عامر خلف احدي اشجار الحديقة يراقبها حتي دخلت القصر، ورأى زوجها خلفها يحمل احدى الحقائب والسائق خلفه يحمل البقية.

خرج عامر وهو يلتقط أنفاسه سريعاً لم يكن يعلم ان حلمه الذي حلق بعيداً أتى ثانية اليه وعاش في مكانه ثانية، دخل منزله وهو لايرى امامه من الفرحة، ثم سمع صراخ يدوي في المنزل فركض حيث الصوت فقابلته زوجة أبيه باسمة وهي تقول:

- مبروك عامر أنجبت لك فاطمة هذه المرة صبياً، بارك الله فيه وجعله ذرية صالحة.

نسى عامر ماكان فيه عندما شعر انه اصبح أب للمرة الثانية ودخل الي زوجته الراقدة وبجوارها الطفل واختـه ليلـى تداعبـه، اخـذ يقبل جبـين فاطمة ويدها وهو يقول :

- حمداً لله على سلامتك فاطمة، ومبارك علينا ذريتنا.

ردت بوهن

- يسلمك ربي من كل شر ياعامر، ماذا ستسميه؟

فكر لدقيقة وأجابها

- سأسميه(بدر)، مارأيك؟

ابتسمت وقالت

- جميل بدر ياأبا بدر.

فشرد وهو يقول:

- هكذا اصبح لليلى بدراً يعينها علي ظلام الحياة.

انتهي من حديثه وهو يحتضن ليلـى ويربط علـي رأس بدر، نظرت لـه فاطمة كمن تقول لا افهم شيئاً فأنتبه لعدم فهمها ممـا جعلهمـا يضـحكا ثم تركها ترتاح وترك بدر جوارها واخذ معه ليلى وخرج.

٤

جلب الصيف فرحة غامرة جديدة الي بيت حسين خطاب فلم ينتهي شهر مايو الا وهو واضع بين ايديهم زهرة فواحة، ووضع ايضاً زهرة مماثلة في بيت عزيز السمري.

أتى عامر إلى ابيه في الارض يبشره بإن زوجته نعيمة تلد، وركضا سوياً الي البيت وفي الطريق قابل عامر زوج ليلى يقف مرتبكاً فترك ابيه يعود وحده وذهب إليه ليرى مابه فسأله: هل من مساعدة سيدي؟

نظر له شوكت ورد: انا زوج ليلى ابنة السيد عزيز السمري وانا لا اعرف مكان الطبيب هنا هل لك ان تدلني عليه فزوجتي تلد.

ارتبك عامر وقال له: لا يوجد اطباء في تلك الناحية، سأجلب لك القابلة حالا.

اجابه شوكت باستنكار: قابلة؟ هذا غير صحي ومن الممكن ان تموت زوجتي وهي تلد، فالقابلة غير مهنية.

قال عامر بعصبية: أنجد زوجتك ودعها تلد بسلام بدل ان تأخذها للطبيب ووقتها قد تلد في الطريق او يختنق الطفل داخلها.

ثم تركه وركض الي البيت يمني نفسه ان يجد الخالة(مستورة) لتنقذ حبيبته وطفلها، وعندما وصل وجدها تهم بالرحيل فأخذها وأرسلها الي البيت ولم يجرأ علي الدخول فقط انتظرها بالخارج، وبعد فترة خرجت وهي تقول: حمداً لله جئتها في اخر وقت، هي والطفل كانا في حالة سيئة واستطعت ان اخرجه منها دون خسارة احدهما.

فجاء سؤال عامر بلهفة: وماذا أنجبت؟

اجابته: فتاة جميلة سمعت أبيها يقول انهم سيسمونها فريدة

فأعطى عامر القابلة اموالا لانقاذها حبيبته وقدرتها علي الحفاظ علي سلامة ليلى وابنتها.

ثم عاد الي البيت تغمرة السعادة وعلم ان زوجة أبيه انجبت صبي ايضاً وأسمته (فاضل).

وقع هذا الخبر كالصاعقة علي رأس عادل، فعلها والده وأنجب ذكراً سيأخذ ذلك الرضيع نفس نصيبه ويزيد عليه نصيب أمه، سحبت الافكار عادل من وسط بيته لتجعله يحل ضيفاً سريعاً علي بيت ابيه ليبارك المولود الجديد بقلب يملؤه الحقد.

المرض هذا المراوغ الذي لايقبع في مكان محدد يجعل الاطباء يستئصلونه مره واحدة وينتهي الامر، ان الاصعب هو انك لا تعرف ماهية المرض بالتحديد، وهذا المرض أقعد حسين خطاب في فراشه عامان واكثر قبل ان يتوفي ويترك ولده الصغير وزوجته. .

لم يكن يعلم الصغير فاضل ان بعد اتمامه عامه الثالث سيبدأ حياة الشقاء والألم، لقد توفي والده مما جعل الفرصة سانحة لعادل بان يطلب الوصاية علي اخية الصغير وعلي امواله بعد ان رفض عامر ذلك وقال ان الام أحق بالوصاية منهم، لم يلق عادل بالا بكلمات اخيه الاكبر كيف

لإمرأة ان تدير اموال ابيهم وتقف بين الحقول لترى المحاصيل وتتعامل مع التجار، ذريعة وحجة قوية جعلت موقفه رجولي امام الجميع، وتم إعلانه وصي علي اموال فاضل حتي يبلغ سن الرشد.

انتقل عادل وزوجته الي بيت ابيه ليعيشا معهم وليضع ذلك الصغير وامه نصب عينيه، عاش فاضل في كنف بيت يحمل بين جنباته الجنة والجنب الاخر هو الدرك الاسفل من الجحيم، كان عامر يحنو ويرعي وكأنه الاب الذي فقد، وعادل هو السياط بيد جلاد غير مرئي يضرب ويعاقب بشدة.

في يوم كان فاضل وبدر عائدين من" الكُتاب" وهم يرددون ماتلاه عليهما شيخهما من القرآن كي يحفظاه، فلقد أتما عامهم الخامس، لكن بدر سبق فاضل في الحفظ فاستطاع ان يحفظ عشر اجزاء في حين ان فاضل لم يحفظ سوى سبعة فقط، رأو ان شجر التوت قد أدلي بثمره ينادي الجائعين، فاقترح بدر علي فاضل ان يحمله ليقطف بعض التوت الشهي ورغم معارضه فاضل وامام الحاح ابن اخيه خضع له وحمله علي اكتافه، ظل بدر يقطف ويقطف من التوت حتي ملأ جلبابه وقبل ان ينزل اختل توازنه وسقط عن فاضل الذي سقط بدوره وهو يحاول ان يمسك ببدر، ظل بدر يصرخ وقد اتسخت ملابسهما بالطين فلم يستطع فاضل القيام بشي سوى الركض نحو البيت لإبلاغ اخيه عامر، وبعد دقائق كان عامر يحمل ابنه الي المشفي الجديد ومعه اخيه عادل وزوجته والصغير فاضل.

ظل عامر مع ابنه وزوجته بداخل غرفة الطبيب يحاول تجبير قدمه وبقي عادل وفاضل بجوار الغرفة، وعندما اطمئنا علي بدر التفت عادل لفاضل ونظر له شزراً ثم قال:

- اليس برأسك القذر هذا عقل؟! لماذا أوقعت ابن اخيك ياحقير؟

انهي سؤاله وهو يلطم فاضل صفعة تلو الاخرى، فظل فاضل يتحدث بطريقة متلعثمة باحرف غير مفهومه من فرط خوفه، ركضت نحوه فاطمة زوجة اخيه وهي تحتضنه وتحاول تهدأته وهي تنهر عادل لفعله:

- ماذا تفعل يامجنون؟ هذا طفل لايعي شيئاً، ثم ان بدر هو المخطئ وهو من قال انه أصر علي ذلك وفاضل هو من رفض.

رد عادل بغضب:

- كيف رفض وفي نفس الوقت وافق علي ان يحمل ابن اخيه، ان هذا الولد شيطان يريد ان يقتلنا كي يأخذ هو وامه كل شي.

رمقه عامر الذي كان يحمل ابنه بنظرة قاتلة أخرسته، ثم ناول بدر لامه واقترب من عادل وهو يمسك بتلابيبه:

- الشيطان هو انت لا هو، انت لا تفكر سوى بالمال، كيف لطفل في هذا العمر ان يفكر فيما تقوله انت، ماذا يعني له المال امام لحظة دفء يحظي بها من اخويه، اتق الله ياخي وكف يدك عنه.

ثم اخذ عامر اخيه فاضل الذي لم تنتهي من علي وجهة امارات الذعر والخوف، احتضنه بشده وهو يربت علي رأسه ويقول:

- لا تخف حبيبي بدر بخير، وسوف اذهب اجلب لكم الكثير من التوت لتأكلاه سوياً.

نظر لـه فاضـل بهـدوء وبـراءة ثـم ركـض علـي فاطمـة وقبّـل قـدم بـدر المصابة، في اشارة منه علـي حزنـه لمـا اصـابه، فعـاد عـامر النظـر الـي اخيه وهو يقول:

- اتظن ان تلك البراءة تحمل خبثك؟!

رحلا جميعاً وسكنوا اسرتهم بعد يوم كاد يكون الاصعب، ولكن فاضل أبت ذاكرتـه الاستكانه الا بعد ان تحفر تلك الذكري فـي مؤخرة عقلـه لتكون شاهدة علي طفولته الشقية.

٥

لم يكن هناك شئ يهون علي فاضل افعال أخيه سواها، تلك الصغيرة الشقية التي لاتنفك عن مداعبته وهو حزين كي تراه يبتسم، لم تكن" فريدة" سليلة العرق الملكي تعترف بالفرق بين أبيها وأبن الرجل الفلاحالبسيط، لم تكن تلعب مع سواه حتي بدر لم تكن تحب مرافقته وتفضل ان تجلس جوار فاضل الذي كان قليل اللعب والاندماج مع الاطفال.

كانت عينا فريدة هي الخلاص من كل شئ، رغم رماديتها الضبابية التي توحي بحزن دفين إلا انها قادرة علي هدوءه حينما يراها.

هؤلاء الاطفال الذي أتمو جميعاً عامهم السابع لم يستصيغوا السعادة وسط تلك الاجواء السياسية المشحونة فقد حدث ما لايحمد عقباه ،صراخ وعويل ونحب، اصوات قنابل ودانات تنطلق في سماء مصر، سيناء تستغيث، إنها النكسة.

وما بعد هذا الجرح الغائر في صدر البهية الا ان تسقط مدرجة في دماءها ترى ابناءها قتلى وأسرى وهم في اماكنهم، لم يتقدم احدهم خطوة لرد الهجوم فإن رصاص الغدر سبق حماستهم بفارق ارواحهم.

وظللت سحابة سوداء مصر جعلتها تعيش أحلك أيامها فحتي الافراح ذابت في الدموع وكل من كان له ابتسامة خلعها ليضمد جرح احدهم بها.

بدر، فريدة، وفاضل رغم صغر أعمارهم إلا انهم اتشحوا بالسواد كباقي المصريين.

في هذه الفترة كانت النكسة الحقيقية تسكن روح فاضل من كثرة اضطهاد أخيه له فلا طائل من نصائح او محاولة صلح، عادل كان يمقت فاضل لمجرد انه يشاركه بميراثه هو وامه، يعاقب الصغار علي أفعال من رحلوا من الكبار، فكلما اشتد عود فاضل أشتدت مشاعره صلابة وماتت من داخله اي عاطفة تجاه اخيه، ومازاد الجرح تقيحاً هو غياب فريدة.

هربت ليلى بإبنتها في احدي الليالي بعدما علمت ان زوجها يعمل مع العدو وكانت لاول مرة تعرف فيها سبب اموال زوجها الطائلة التي هبطت فجأة عليهم.

حدثته في تلك الليلة وقد قررت ان تواجهه بكل شكوكها وارتيابها في امواله، فعند وصوله البيت وتناولهما العشاء ادخلت فريدة غرفتها وبقت جوارها حتي نامت ثم ذهبت لغرفتها فوجدت شوكت قد بدأ يستعد للنوم فجلست علي طرف الفراش وهي موليه ظهرها له وقالت:

- من أين لك كل تلك الاموال ياشوكت؟ نحن لم يكن معنا ربع هذه الثروة.

قام من الفراش وذهب اليها وقال"

- الذكاء ياليلي الذكاء، هو من يجعلك تمسكين كل الخيوط وتجلسي لتضعي الخطط والتكتيكات لتحريك عرائس لعبتك، فتنالي في النهاية مرامك، مهما كلفك الامر.

لم تفهم كلماته فقالت:

- لا أفهم، ماذا تعني بهذا الهراء؟

لمعت عيناه وهو يعترف لها بذكائه الخارق وابتسامة لزجة تعلو وجهه

- أنا ياحبيبتي من سهلت المعلومات للعدو لحدوث تلك النكسة.

صدمها حديثه فقالت بشي من الوهن

- ماذا؟

- وكل هذه الاموال ثمن مجهوداتي معهم.

صمت مطبق يلف الغرفة حولهم، يجعل وقع صوت الابرة له رنين الاساور في يد نحيلة، ثم صوت بكاء ليلي يعلو كثيراً ةكأنها تنتحب وتقول :

- خائن، انت خائن ياشوكت، لماذا فعلت كل هذا بنا، لماذا؟

اجابها وكأن مافعله هو الافضل:

- كي نحيا حياة الشرفاء كما عشنا طوال عمرنا، أليس هؤلاء الضباط هم السبب في خسارة اموالنا وهربنا الي الخارج بعد ان مات والدك بأزمة قلبية حين رأي الفلاحين الرعاع يستولون علي ارضه.

- وهل هذا يعني ان تدمر انت ومن معك دولة كاملة كي تعيش انت؟ هل تعلم كم ام قلبها انفطر علي استشهاد ابنها، كم زوجة اصبحت

ارملة، كم طفل حمل لقب يتيم، هل لديك عقل فكر ولو دقائق ماذا سيحدث لو اكملت ماانت فيه؟!

نظر لها بإستعلاء وهو يدور بالغرفة ويقول"

- لايهمني احد سواك وفريدة وانا، لا اريد ان نعاني كما عانينا بعد الثورة، لن اعيش بقية حياتي علي فتات يريمه لنا رجال الجيش لايكفي العيش حتي لاسبوع.

محت دموعها ثم اخذت وسادة وغطاء وقبل ان تخرج من الغرفة قالت له:

- اذا ان يجمعني بعد اليوم معك مكان واحد وسأذهب لانام بجوار فريدة واتمني ان تذهب غدا لتطليقي بكل هدوء.

خرجت وغلقت الباب خلفها بكل شدة تنم عن حرقة قلبها من رجل بات من الليلة غريب عنها.

بعد يومان لهذا الحديث أختفت ليلي وصغيرتها فريدة دون ان يعلم احد عنهما شيئاً ولا الي اين رحلا.

شهور قليلة مرت ثم تم القبض علي شوكت بتهمة الجاسوسية، وعاد قصر عزيز بيك للانغلاق ثانية.

قساوة العالم كله سكن صدر فاضل دون ان يعلم ما الذي يعتريه وما سبب الالم الذي يعصر قلبه الصغير، أنزوى علي نفسه لايخرج سوى للمدرسة فقط، يستذكر دروسه بالكاد وينسي كثيرا مما درس، فضعف

مستواه الدراسي لكنه نجح في الابتدائية بمجموع متوسط أهله لدخول مدرسة الاعدادي.

٦

هناك تعرف علي ولد أسمه (أحمد) كان دائماً مايحمل معه كتاب غير الكتب الدراسية يقرأ فيه في وقت الراحة او اثناء عودتهم لبيوتهم، فسأله فاضل

- ماهذا الكتاب ياأحمد؟

رد احمد وهو لازال ينظر داخل كتابه

- إنها رواية.

تعجب فاضل وقال

- ماذا تعني رواية؟

اغلق احمد الكتاب ونظر الي فاضل وهو يقول

- انها حكاية طويلة يكتبها شخص اسمه أديب.

ابتسم فاضل وهو يقول بخبث

- ولماذا تخبئها كلما أتي مدرس ناحيتنا ؟

ضحك احمد وقد فهم مايرمي اليه فاضل ثم قال

- لانه غير مسموح لي قراءة تلك الروايات اثناء الدراسة، ان اخي يجلبها لي من مصر كل شهر وهو عائد الي قريتنا في اجازة من عمله.

توقف فاضل عن المشي وهو يستدرج احمد لمعرفة المزيد

- ما اسم تلك الرواية؟

اجابه احمد بنفاذ صبر

- ماجدولين، لمصطفي المنفلوطي.

- هل استطيع قرائتها؟

- نعم، تفضلها، فقد قرأتها مرة واعيد قرائتها ثانية فلا بأس من اعارتي لك اياها علي ان تعدني ان تعيدها لي سليمة.

- أعدك بذلك.

ثم افترق كل منهما الي بيته وكانت هذه اول خطوة لفاضل في عالم القراءة الذي حبى فيه مع بداية عامه الثاني عشر.

أصبح من وقتها أحمد أعز اصدقاء فاضل وبعد ايام أجتذبوا اليهم بدر حتي صار الثلاثة كأضلع المثلث متساوي الاضلاع، فبعد ان قرأ فاضل ماجدولين اعطاها لبدر ومن بعدها بدأ الجوع للمزيد حتي استطاعوا في عام واحد ان يقرأو كل الكتب التي في بيت أحمد والتي تخطي عددها خمسون كتاب.

ورغم هذا لم تتأثر دراستهم علي العكس تفوقوا كثيرا وصاروا أعلم من قرنائهم بعلوم الدراسة، فلم تتوقف قرائتهم علي الروايات ولكن قرأوا في التاريخ والجغرافيا وتدربوا كثيرا علي تجارب العلوم وحساب الجبر والهندسة، فلقد كان في غرفة احمد معمل صغير جدا يطبق عليه تجاربه

الكميائية الصغيرة فقد كان مولعاً بالكمياء رغم علمه البسيط عنها، اما بدر فقد كان عقلية حسابية ماهولة واصبح يحسب اعقد المسائل الحسابية بأسرع وقت، أما فاضل فأسره الادب بكل فنونه الشعر، الروايات، القصص والمقامات، وكل ماله علاقه باللغة العربية وبلاغتها.

حتى جاءاليوم الذي قرر فيه بدر وفاضل ان يجب عليهم كرجال ان يزيد مصروفهم قليلا ليتسني لهم الادخار لشراء الكتب والروايات، فالاستعارة مهما قلت فهي تؤذي نفس صاحب الكتب ويعز عليه دوماً مفارقة كتبه، ولان فاضل يعلم جيدا ان عادل لن يوافق علي ذلك فقام بدر بتلك المبادرة، ولان عادل يحب بدر فكانت كل طلباته مجابه واصبح اخو أحمد يجلب كل شهر ثلاث نسخ من نفس الكتاب لأخيه احمد واصدقاءه بدر وفاضل، الذين يدخروا نصف مصروفهم اليومي طيلة الشهر ثمناً لكتاب او اثنين يجلبه لهم ذلك الرجل الطيب.

لم يمر عام حتي خلعت مصر رداء الحداد وارتدت ثوب الافراح، فقد عبر جنودها البواسل" القنال" كما ينطقها المصريين وجلبوا النصر الذي غاب عنها سنوات.

كان الاصدقاء يتمشون بين الحقول حين أعرب احمد عن فرحه لما حدث وقال:

- هذه الايام لن ينم احد من فرط السعادة، واخيراً انتصرنا.

فرد عليه بدر متحفزاً

- اعتقد ان هذا النصر تأخر قليلا، كنت اظن ان لن تهدأ حياتهم الا بعد ان يثأروا لما حدث في النكسة، ولكن ماحدث قد حدث وليس هناك جدال.

ولكن فاضل كان رأيه صادم لهم حين سمعوه يقول

- ان حركة يوليو التي اطاحت بالملك كانت النكسة الاولي لمصر، لاول مرة نري عصيان الابناء علي ابيهم لمجرد انه شاخ وبدأ يتصرف بغرابة او هكذا صوروا لنا، ان كانوا اعطوا ابن الملك فاروق فرصة اصلاح ماافسده ابيه لما كنا علي هذه الحال الان، ولكن كما قال بدر ماحدث قد حدث.

كلمات فاقت عمره الذي تخطي الثالث عشر، ولكن هل يتوقف فاضل عن ترديد اراءه السياسية كما يردد الشعر والنثر والحكايا؟ لا، بل انه طوع عقله في كتابة قصص عن الحياة السياسية في مصر ونظم الشعر في رثاء الملكية وذم حكومة الضباط الاحرار.

حاول اخيه عامر ايقافه بالحسنى لم يستجب، فجاء دور المطرقة علي السندان ولم يوقفه الا عادل الذي اهداه ضرباً مبرحاً كاد يقتله، ولكن انقذه عامر وذهب به الي الطبيب سريعاً واسفرت تلك المعركة الغير متكافئة عن كسر في ذراع فاضل اليمنى جبره الطبيب ببعض الادوية انما هناك كسر اخر لن يشفيه حتي الزمن، كسر الروح.

لم يعلم الجميع سبب خرس فاضل لشهور طويلة، حاول أحمد وبدر اخراج فاضل مما هو فيه ولكن لا استجابة، يستذكر دروسه جيدا ولكن

لسانه يحتضر، حتي بعدما علم بنجاحه وتفوقه لم يهتم كثيراً، لكن ماسعده حقاً انه سيذهب للمدرسة الثانوية في احدي المحافظات البعيدة.

قام اخيه الاكبر عامر باستئجار شقة صغيرة لابنه بدر واخيه الاصغر فاضل مناصفة مع صديقهم احمد وشاب اخر اسمه(فوزي) وهو ابن عم احمد وكان في نفس عمرهم ومعهم في مدرسة الاعدادية، ولكنه لايهوى مايهون وليس له سوى دراسته وحفظها حفظاً صماً لا فهم او تدبر فيه.

قبل ان ينتقل بدر وفاضل الي شقتهم الجديدة جهزت فاطمة ونعيمة لهم كل مالذ وطاب وبعض الاطعمة المجففة التي جلبها لهم عامر من السوق كي تستمر معهم لفترة اطول من الطعام الطازج وكان الشابان كلا منهما في غرفته يرتب حقبة سفره ويضع فيها كل مايلزم، ولم ينسيا كتبهم العزيزة.

في تلك اللحظة دخل عادل الي غرفة فاضل في محاولة لأستفزازه

- إلى اين يا اخرس؟

نظرة غضب من فاضل الي عادل وصمت مطبق، جعل عادل يختال بنفسه وهو يعرف ان اخيه لايتحدث فأكمل:

- لا دراسة بعد الان، اجلس هنا وارعى الارض مع اخيك الاكبر عامر، يكفي هكذا ايها الاخرس.

فلم يتمالك فاضل نفسه وخطف من امامه كوب الشاي التي اعدته له امه كي يفطر به مع بعض شطائر الجبن وقذفه بجوار رأس عادل فاصتدم بالجدار واصبح شظايا زجاج.

استفزت عادل تلك الحركة مما جعله يسرع اليه ليضربه وللمفاجأة سبقت يد فاضل عادل وامسكتها باحكام ونطق بعد صمت بلسان ثقيل:

- ليس هذه المرة ياعادل.

ثم القي يده بعيداً، أدرك وقتها عادل ان فاضل كبر أكثر من اللازم، وأصبح أقسى منه، فاقترب منه ولازالت امارات الصدمة علي وجه عادل:

- لن اسمح لك بعد الان ان ترفع يدك علي او ترفع حتي صوتك، والا سأذيقك صمتي الذي سجنتني فيه سنوات، وقد اكون اشد منك واذيقك الصمت الابدي وأرسلك لوالدنا تشكوا له جحود ابن زوجته.

لم يشعر عادل سوي بيد فاضل تدفعه خارج حجرته مع تحذير انه اذا وطأت قدمه غرفته ثانية سيكسرها له، شعور مختلط غالب الجميع مابين فرحة عودة فاضل يتكلم وبين صدمة مما حدث منه تجاه اخيه، ابن الخامسة عشر اصبح ذا قوة وهيبة، والسبب العنف.

٧

في بداية العام الدراسي وجد فاضل هدوء نفسي وسلام داخلي قوي كأنه غاص حتي اذنيه في السلسبيل فطهره من الداخل والخارج، وبدأ يرى عالم جديد عن عالم الصعيد، فكانت تلك المحافظة هي الشرقية وبالتحديد مدينة الزقازيق، فتيات بفساتين ضيقة ووجه مكشوف، جمال آخر غير بنات الصعيد الذي لايظهر منهن شيئاً بالكاد تري عيون وتسمع صوت.

مدينة جميلة واسعة بها بيوت كثيرةً، في البيت الواحد يقطن اكثر من عائلة ليس بينهم صلة قرابة، تختلف كثيراً عن بيوت الصعيد التي يمتلك البيت عائلة واحدة تضم افرادها جميعاً، هوائها رائق عليل وشمسها هادئة وحتي شتائها جميل غائم كما يفضله فاضل.

سكنوا بيت احد اساتذتهم في المدرسة وهو الاستاذ سيد عثمان مدرس اللغة الفرنسية، بيت مكون من ثلاث طوابق، فالطابق الاول هو لأخت الاستاذ سيد الصغرى وجيدة والتي لديها ولد لم يتجاوز العاشرة اسمه محمود اما زوجها فيعيش بالعراق لظروف عمله ويأتي لهما مرة واحدة كل عام، والطابق الثاني يسكن الاستاذ سيد وعائلته الصغيرة المكونة من فتاة وشاب قد استشهد في حرب اكتوبر، وهذا يفسر مناداة الجيران للاستاذ سيد ب ابو الشهيد.

في يوم عودة من المدرسة تصادف صعوده لشقته وجود فتاة تخرج من شقة الاستاذ سيد، اقل مايقال عنها فاتنة ذات عيون خضراء مائلة الي الصفره وجديلتين كسنابل القمح مائلتين علي كتفيها تقبل اطرافهما

خصرها، وجهها ابيض شائب بحمرة طفيفة ممتلئ كجسدها صاحب العود الفارع، لا توحي لمن يراها انها في الخامسة عشر من عمرها فقد خطت سريعاً الي الانوثة، ظل يحدق فيها فاضل كأنه لاول مرة يرى فتيات في حياته وظل يتابعها حتي خرجت وهي تمشي الهوينى فأصابته بالهوى.

(صفاء) كما وجهها هي ابنة الاستاذ (سيد عثمان) تدرس بمدرسة البنات وهي تماثلهم في العمر وعندما قابلت فاضل قد كانت ذاهبة لاحدى صديقاتها لتذاكر معها.

اما فاضل الذي بدأ يترقب مواعيدها ليراها ويشبع عيونه بجمالها اهمل دروسه لبعض الوقت وايضاً قرائته ولم يفيق من تيهه سوى منام رأى فيه صورة فريدة وهي طفلة، كان اخر عهده بها قبل اختفائها بليلة حينما ضربه عادل دون سبب كالعادة وخرج يجري اليها يشكو حاله، فكانت تواسيه ببراءة الاطفال وتقول:" لا تبكي يافاضل ان الله يحبك ويسمع بكاءك فقل له كل شي وستهدأ، هكذا كانت تقول لي امي" رأها في منامه غاضبه تلومه سوء تصرفه وتلصصه علي الفتيات واهماله مذاكرته واستفاق فزعاً حين رأي خلفها عادل يتوعده ان لم ينجح سيحرمه من الدراسة للأبد.

كان ينام معه بنفس الغرفة بدر وبالغرفة الاخري ينام احمد وابن عمه فوزي، واستيقظوا جميعاً علي صوت صراخ فاضل وهو يحاول ان يمسك بفريدة قبل ان تذهب ثانية ويبتعد معها عن عادل، تكرر ذلك الحلم اكثر من مرة حتي استعاد رابطة جأشة وبدأ يعود كسابق عهده في

المذاكرة والقراءة وابتعد عن صفاء حتي أنهى عامه الاول من الدراسة ونجح بتفوق.

اما صفاء فكانت في حيرة كيف له ان يعيرها كل هذا الاهتمام وفجأة ينقطع عن وقوفه في النافذة وقت ذهابها وايابها من بيت صديقتها او عندما يمشي خلفها وقت عودتهما من مدرستهما او حتي نظرات مبعثرة وقت تصادفهما علي الدرج، وها هو الان سيغادر الشقة حتي يقضي أجازة العام الدراسي ببلدته ثلاث اشهر كاملة لن تراه.

عاد فاضل وكان بوده ان لايعود حتي لا يجد امامه ذلك المسخ المسمي عادل، ولكنه اشتاق جدا لحضن امه المسكينة وسط ابناء زوجها وها قد عادت ايضاً اخته عفاف مع زوجها واولادها لقضاء بعض الوقت ببيت ابيها قبل عودة الدراسة لابنائها وكي ترى اخيها الصغير .

انها لم تراه منذ النكسة ولكن فاضل أبى ان يبقي في البيت طيلة الوقت فقد كان يخرج مع اخيه عامر وبدر وليلي الي الحقل صباحاً، يجلسون يتحادثون عما يرون في الزقازيق، وقد قابلهم في ذلك اليوم احمد واخية الاكبر(سعيد) الذي كان يشتري لهم الروايات فيما مضي، ووقع نظره علي ليلي ابنه عامر الكبري فقد اصبحت في الثامنة عشر من عمرها وتخطي جمالها الكثيرات.

بعد شهر تقدم لخطبتها وتمت الموافقة وسط مباركة العائلتين ولكن ماالحزنهم انها ستذهب معه الي القاهرة كما عمتها عفاف، بل انها ستسكن قريباً منها وهذا كان عزاء امها الوحيد انها لن تكن وحيدة هناك وانها ستأتي اليهم كل شهر مع زوجها لتراهم.

لم تنتهي اجازة العام الا وكانت ليلي تزوجت وسافرت مع سعيد الي بيتها الجديد، بعد سفرها بااسبوع تأهب الشباب للعودة الي الزقازيق لتكملة الدراسة وهنا لم يجرؤ عادل علي الاقتراب من فاضل، انه اصبح اكثر شبابا وقوة وصار يافع طويل القامة كأبيه فقد اخذ من ملامحه الكثير، يكاد يكون نسخة طبق الاصل منه واخذ منه ايضاً فتوة الشباب والبنية الجسدية المتينة رغم صغر عمره، فقد ترك له المال اللازم خلال عامه الدراسي مع اخيه عامر وذهب منذ الفجر كي لا يراه.

في الطريق جلس فاضل يفكر لماذا يزداد كل يوم كره عادل له؟

هل لانه لم ينجب ولن ينجب ابداً ام لان ماله ومال ابيه كله سيذهب لهم ولن يجد غيره واخوته وابنائهم من يتمتعون بتلك الثروة؟!

- حمدالله على السلامة.

- الله يسلمك يانسة صفاء.

- الزقازيق كانت في غيابك بلا طعم.

- هذا من ذوقك يانسة.

- ارجوك يافاضل لاتغب ثانية، يبدو عليك الاجهاد كثيراً، هل انت مريض؟

- لا اجهاد السفر لا اكثر، استمحيك عذراً اريد ان اصعد كي ارتاح.

- بعتذر لم انتبه اني معترضه طريقك، تفضل.

ترك فاضل شقراءه تكتوي بنار الشوق دون أن يُهدأ فضولها نحو مايعتريه، وأنقض ع فراشه بعد ان رتب اغراضه وملابسه، انه في حاجة الي نوم خالي من أي أوجاع تنتظر استيقاظه.

بعد يومان ذهب فاضل ورفاقه الي مدرستهم وتعرفوا علي موادهم الدراسية والتي وقع فاضل في غرام احداهم هي مادة" الفلسفة" بجانب ولعه بالادب ولكنه كره بشده مادة علم النفس، فإنها تغوص داخل النفس البشرية وتستعرض عُقدهم وتستخرجها علي سطح الجسد فيعدمه أو يحيه من العدم، وهذا مالايحبذه فاضل لا يريد من الناس شيئاً سوى أن يتركوه في انزواءه، وقبل انتهاء اليوم الدراسي دخل الاستاذ سيد مدرس اللغه الفرنسية- اللغة الملتوية- كما يلقبها فاضل جلس الاستاذ يفخم ويظهر أهمية لغته امام طلابه وجمال الحديث بها، مما أثار سخرية فاضل، وانتهي اليوم وبدأ الحديث فيما بينهم عما سيدرسوه

فاضل: سأدرس في القسم الادبي.

فوزي: وانا ايضاً، فالقسم العلمي يرهقني في الحفظ

بدر باستهزاء: لان عقلك يأبي العمل فإنه يعشق الراحة والدعة وتظل انت تطعمه المعلومات حفظاً حتي يلفظها في ورقة الامتحان ليعود لدعته ثانية، المواد العلمية تحتاج الي عقل نشيط متقد دائم التفكير.

أيده أحمد: نعم صدقاً مايقول بدر، العلوم الفيزيائية و الكميائية مثل علوم الرياضيات والهندسة بالضبط تحتاج الي عقل مستنير لا يكل من العمل.

فاضل: ان اللغة الفرنسية هذه بلا طعم، مثل فتاةجميلة جدا رشيقة حد الانبهار ولكن دون ثقافة وحسن منطق.

ضحك الجميع علي تشبية فاضل الذي لم يتوقعوه منه،

ثم أكمل: أما الانجليزية أشعر وكأنها أميرة لغات العالم، لاينطق بها الا متقن ولا يتغني بها الا عاشق.

حاول فوزي ايقاعه وقال: ماذا عن اللغة العربية اذاً؟

فاضل: إنها الملكة الام ياأحمق، اللغة التي لا تضاهيها لغة اخري في قيمتها وقامتها وأزليتها ورنين أحرفها، فإن تركتني لن أنفك عن الحديث فيها.

أحمد: لابد ان تصمت فإن فتاتك تنتظرك في النافذة، أنظر.

نظر فاضل وجد صفاء بزيها المدرسي وجديلتيها ذات الشرائط البيضاء المعلقة بأخرهما تنتظر قدومه من المدرسة، فقد اصبح يتأخر هو والرفاق في العودة بعد انتهاء اليوم المدرسي اكثر من نصف ساعة، تركه بدر واحمد وفوزي وصعدوا الي شقتهم وتبطأ فاضل في خطواته حتي خرجت من شقتها وتقابلا عند الدرج كالعادة

- ألن تعقلي بعد؟

- لماذا تحدثني بهذا الجفاء يافاضل؟

- لان كل ماتفعليه اصبح مكشوفاً لكل شخص يراكي ويراني، انتي لا تسيطري علي مشاعرك، ارجوكي انا هنا لأدرس فقط، أذهبي وانتهي فوراً من لعب الاطفال هذا.

- فاضل انا احبك

قالتها وهي تبكي وكأنها تستجدي عطفه، ولكن فاضل مات قلبه منذ زمن ولا يعرف اي مشاعر حانية سوي لشعره ولامه ولتلك الغائبة فريدة، التفت اليها وقال

- اخطأتي الهدف يافتاة، أصاب غرامك شاب نصف قلبه مع أمه البعيدة والنصف الاخر مع تلك الضائعة.

مع كلمته الاخيرة تأكدت ان هناك فتاة اخري، فمحت دموعها وقالت بغضب

- أتحب فتاة أخرى؟

رد وهو شارد في طفولة انقضت مع غياب فريدة

- بل هي ملاك ليست من اهل البشر، ليتها هنا ماكنت أشعر بأي وخز الان في قلبي كلما تذكرتها.

استشاطت صفاء غضباً وقالت

- رجل بلا ضمير حقاً، ولماذا لم تخبرني عنها قد يكون هناك دافع يجعلني اتوقف عن الانجذاب لك؟

- اخبرك؟ من انتِ حتي تشاركيني خصوصياتي؟ ابتعدي عن طريقي واياكِ تعترضيه ثانية والا سيكون لي مع والدك حديث اخر.

لم تستطع النطق بحرف اخر بعد الذي قاله، تركته ودخلت شريعا واغلقت الباب في وجهه الذي لم تراه ثانية، ايام لم ينمها فاضل وقد ألمه ضميره حقاً لما حدث مع صفاء، حاول اكثر من مرة ان يراها ليعتذر

منها ويطلب الصفح لكنها لم تعطه فرصة لذلك، فتوقف عن المحاولة نهائياً.

٨

قضي فاضل سنتيه في مدرسته وهو لا يشغل باله سوى بالدراسة حتي أتاه يوماً احمد محملاً بأخبار سعيدة حيث نجح الجميع في امتحانهم، وخبر واحد حزين" صفاء ستتزوج".

هنا ظن الاصدقاء الاربعة انه الفراق، حيث ان كل منهم اختار كليته حسب تخصصه ومجموعه، فقبل فاضل بكلية الاداب وأحمد في كلية العلوم وبدر في الهندسة واخيراً فوزي في الحقوق، ولكن القدر رحيم بهم فقد اختلفت كلياتهم ولكن بنفس الجامعة، جامعة القاهرة.

اصطدام جديد بين عادل وفاضل بسبب الاموال، الان فاضل سيسافر الي القاهرة ويجلس هو واصدقائه في البيت الجامعي، ولابد ان يكون مايكفي معه من المال لكل نصف عام لشراء الكتب والطعام ومايلزم للحياة هناك، وكالعادة شب بينهم خلاف كبير أسفر هذه المرة عن تصريح شديد اللهجة من فاضل بتوقف عادل عن تسلطه عليه وعلي والدته وان الوقت اقترب جدا وسيخرج من وصايته ويكون له حق التصرف في امواله واموال امه من ميراث ابيه، مما أرعب عادل حيث ان نصيب فاضل وامه كبير.

سافر الشباب وليتهم ماسافروا، مع بداية العام الدراسي وجدوا استقبال سيء من اصدقائهم ابناء المدينة، واستهزائهم كونهم فلاحين ولايفقهوا شئ عن حياة المدينة واجوائها وانهم جايين" من ورا الجاموسة" كما كانوا يقولون عنهم، وان بهم سذاجة تصل لدرجة الغباء حيث يستطيع اي نصاب اقناعهم" بشراء التروماي" في اشارة منهم علي غبائهم

الشديد، فكان جلوسهم في بيت المغتربين بالجامعة درب من دروب المستحيل، فإنهم لا يتحملون الاهانة والاستهزاء، فكما فعلوا بالزقازيق فعلوا بالقاهرة.

جاء شقيق احمد الذي اصبح زوج ليلي اخت بدر وابنة اخ فاضل بالبحث عن شقة في منطقة قريبة من الجامعة، فوقع الاختيار علي منطقة " بولاق الدكرور" وتم استئجار شقة صغيرة لهم في منزل قديم بعض الشئ ذا ثلاث طوابق تملكه السيدة (فكيهة) التي تمتلك المقهي اسفل البيت ايضاً إنها سيدة قاربت علي الخمسين، طيبة القلب، بشوشة، ذات لسان يملتئ بالشهد، ابنائها تزوجوا وتركوها وحدها هي وابيهم القعيد، فبعد مرضه قامت هي واستلمت ادارة القهوة منذ عشر سنوات تقريبا.

كان فاضل لايحلو له المذاكرة الا في سطوح البيت حيث البعد عن مناقشات بدر وفوزي الذي لا طائل منها، وتكون تلك الرقعة البعيدة عن الاعين شاهدة علي تقلب ذكرياته وذاكرته عن تلك الغائبة فريدة، كيف أصبحت الان؟ هل لازالت جميلة ام ان الايام غيرت فيها الكثير؟ هل هي بمصر ام خارجها؟ اشتاق فاضل لمحياها المبتسم الذي كلما تذكره يشتعل نار الحماس بقلبه يجعله يأكل كتبه كأكل النار في الهشيم حتي يتفوق دائماً.

تلك الفاتنة التي اختطفته ايام دراسة الثانوية لاحقته في دراسة الادب بالجامعة، ففضلها دوناً عن كل الفاتنات الاخريات اللائي حاولن إغوائه لاختيار احداهن لكن عشقه لها يأبي غيرها، إنها الفلسفة معشوقته التي

اصـبحت فـوق عشـقه للشـعر والروايـات، وجـد ضـالته حـين وجـدها تخصص منفرد يستطيع اشباع روحه منها حد الاكتفاء، وقد كان ذلك.

بعد انتهاء احد محاضراته اصطدم فاضل بشاب وهما يخرجان من قاعة المحاضرات، فقد كان فاضل منشغلا بترتيب بعض الاوراق ولم يلحظ ان ليس بينه وبين من امامه سوي خطوة، فالتفت اليه الشاب وقال

- ياهذا أأنت اعمي؟ لقد دهست قدمي واتسخ حذائي.

اجابه فاضل بشكل مهذب

- عفواً ياصديقي كنت ارتب اوراقي ولم انتبه.

نظر له الشاب وهو يضع كلتا يديه بخصره ويقول

- أنت من الصعيد اذا؟

رد فاضل بثقة

- نعم.

فقال الشاب مستهزاءاً محاولا السخرية منه امام الطلاب

- ولماذا تركت الطين والتحقت بالجامعة، امثالك ليس لهم مكان هنا.

فرد فاضل بلامبالاة واضحة

- وهل لأمثالك مكان بالدنيا؟

استشاط الشاب غضباً وهو يقول

- كيف تجرؤ يافلاح علي مخاطبتي بتلك الطريقة؟

ابتسم فاضل كي يزيد لامبالاته وقال

- وهل نعتك لي بالفلاح يؤذيني؟ بل كلي فخر ان اهلي هم من يطعمون اهلك كي يشتد عودك فتنهر بن من كان له فضل عليك.

عادت نبرة الشاب الي سخريتها ثانية حين قال

- هل صدقت انك بالتحاقك بقسم الفلسفة سيجعلك فيلسوف؟

بثقة فاضل التي لم تهتز بل تزيد من هراء ذلك المتعجرف اجابه

- بل لاني فيلسوف ألتحقت بقسم الفلسفة، لأرى من منا أكثر حكمة، أنا أم كتب الكلية.

اراد الشاب ان يخرج فاضل اكثر فقال

- اذا ليكن الرهان علي بعثة الدراسة الخارجية، ان كنت فيلسوف حقاً ستلتحق بها.

- أعدك بذلك.

قالها فاضل وهو يولي وجهه ليذهب ويترك ذلك الشاب المتعجرف يزداد احتقان وجهه بالدماء.

إزداد اصرار فاضل علي الدراسة والتفوق بها كل عام، أربع سنوات امتياز بكل المواد في كل عام من اعوامه الدراسية، مما أهله ليكون من اوائل الدفعة وعلي رأس البعثة الدراسية التي ستكمل دراستها العليا

بإنجلترا، ذهب فاضل الي نفس الشاب صاحب التحدي والذي صعق عندما رأها يستلم شهادته يوم التخرج واسمه يرج جدران الجامعة بأنه من الاوائل وسيلتحق بالبعثة

- ابن الفلاح تعلم الصبر والجلد وقتما كان يجلس ينتظر نمو الزرع ويرى زهراته تنير حقولها، لقد فزت بالرهان لا لأثبت لك شئ ولا لكي افوز بالرهان، ولكن امامي هدف ولابد من تحقيقه، وانت من سهل الطريق امامي حين تحديتني، شكراً لك.

٩

عاد فاضل الي المنيا مُحمل بفخر الشهادة الجامعية مع احمد وفوزي ولكن استمر بدر في دراسته لعامين اخريين، لم يتخيل احد ابدا ان تلك الايام ستكون الاصعب

لقد ذهب فاضل الي المحكمة الشرعية واستلم كامل ميراثه وميراث امه من اخيه عادل ثم حدثت الفاجعة بعد ان اخذ فاضل حقه حزن عادل علي الاموال فاصابه شلل في الجزء الايسر من جسمه من الوجة حتي القدم.

لم يبالي فاضل بما حدث وكأن هذا الرجل ليس اخوه، اخذ فاضل كل امواله وقد وضع الارض الزراعية تحت رعاية اخيه الاكبر عامر وان مايعود من اموال محصولها يذهب لوالدته لكي يتسني لها ان تعيش حياة هانئة في غيابه، في لندن سيكمل سنوات دراسته دون العودة الي مصر فيجب ان يذهب وقد أمن لامه حياة هادئة.

سافر فاضل الي لندن وكانت كما تخيلها، فهو يعشق ذلك الجو الضبابي المشارف علي الظلام، لاعجب ان تأسره من اللحظة الاولي فقد أسرته عيون فريدة قبلاً، لقد جلس في شقة عبارة عن غرفة واحدة واسعة تحوي سرير وطاولة تتوسط كرسيان واعلاها مزهرية أنيقة، وفي الركن المجاور للشرفة أريكة سمراء رشيقة وكأنها فتاه مضطجعة تنظر لما خلف زجاج الشرفة، وحمام ومطبخ فقط، لكن ماعشقه فاضل حقاً هو طلاء جدران بيته الجديد إنه لونه المفضل الازرق، وهذا اللون ايضاً طلى به غرفته بالمنيا وكان دائم ارتداء ذلك اللون، حتي وهو يستقبل

المدينـة الجديـدة كـان يرتـدي معطـف أزرق داكـن طويـل يزيـد بذلتـه السمراء اناقة ويزيده وقار وهيبة تفوق عمره الحقيقي.

بعد شهرين من وصول فاضل جاءه رسالة من اخيه عامر يطمئنـه علـي امـه واحـوال الاهـل والاصـدقاء واخبـره ايضـاً بخبـر حـزين، لقـد قتـل الرئيس محمد انور السادات،" لحق بصاحبه ورفيق السلاح، من الطبيعي ان يموت كل شخص لكن ليس من الطبيعي تصفية كل من شارك في حركـة الضـباط الاحـرار وانقـلاب يوليـو؟!" لـن ينفـك رأس فاضـل عـن التفكير، فقام وهو يقول :

اخيرا اذكروا محاسن موتاكم، ولكن هل هناك فيهم محاسن تذكر؟

ترك فاضل الرسالة وارتدى ثيابه وخرج الي الجامعة ليبدأ دراسته فيها، جامعة لندن كانت تختلف كثيراً عن جامعة القاهرة فهي الاعرق الاقدم ومليئـة بالكليـات والاقسـام ممـا أبهـر فاضـل مـن تعـدد دراسـتها وتعـدد الاعراق والجنسيات فيها، مما اعطاه الحماس بأن دراسته ستسير بشكل افضل.

لاول مرة لايحبذ اقامة صداقات او اي علاقة تحت اي مسمي، رغم انها اول مـرة ينـعم بحريـة اختيـار كـل شـي، ولكـن لـم يجـد فـي نفسـه شـهوة الانتفاع بالغربة سوى النهل من العلم وقراءة الروايات، في ايام الاجـازة قد يذهب الي المسرح او الي مطعم، ليس سوى ذلك.

تمر الايـام والشـهور وفاضـل منكـب علـي دراسته لا يفعل غيرهـا، ولـم ينتبـه لشـئ سـوي لتلـك المدينـة، فـي ليلـة خـرج مـن بيتـه ليتجـول قليـلا وعندما أرهق من السير جلس بمقهي بجوار محطـة الحافلـة، انهـا ذات

المحطة التي يتنقل منها الي حيث يريد، كيف لم ينتبه لذلك المقهي الهادئ، يخرج من بين اروقته صوت موسيقي ناعمة أجذم انها انام انثوية رقيقة، لم يكلف نفسه عناء الذهاب للداخل ليرى تلك الناعمة، وبقي جالساً يستمتع بموسيقاها.

في الاجازة التالية ذهب الي نفس المقهي ولكن نهاراً، أراد ان يتناول فنجان من الشاي كما يفعل الانجليز وقت الخامسة مساءاً وقد انهي وقتها مطالعته لإحدى روايات كاتبه الانجليزي المفضل" تشارلز ديكنز" خطف سمعه صوت ضحكة رنانة والتفت الي مصدر الصوت، فرأها وهي تخرج من الحافلة وهي تودع السائق بإبتسامة حانية، تابعها بنظره فوجدها تتجه الي المقهي الجالس هو فيه، لتذهب الي طاولة بعينها، يستقبلها النادل بحفاوة من يعرفها منذ سنوات، قدم لها الشاي مع الكعك الانجليزي الشهير وتركها تتصفح جريدة كانت تحملها بين يديها.

دقات قلبه تكاد تكون مسموعة، تجذبه بطريقة غير طبيعية وكأنها احد احجار المغناطيس وهو معدن طيع، فقام وهو غير مُلم بما سيحدث وذهب الي طاولتها، حدثها بإنجليزية قوية كأنه تربي منذ نعومة أظافره بلندن

- تسمحين لي بسؤال آنستي؟

خفضت الجريدة عن وجهها ونظرت له من خلف نظاراتها السوداء

- تفضل

ارتبك قليلا ثم، قال

- هل لي ببعض السكر؟

نظرت في دهشة وسألته

- أنت لست أنجليزياً، هل انت عربي؟

اجابها وكأنه قد قبض عليه متلبساً بالكذب

- نعم، انا مصري

قالت مبتسمة

- اهلا بك في لندن.

فغر فاضل فاهه بطريقة جعلتها تضحك بصوت مرتفع، مما اثار عيون الاخريين لها فأكملت

- لا تندهش من عربيتي الضعيفة انا ايضا مصرية، فالعرب هم الوحيدين الذين يضعون السكر في الشاي، تفضل بالجلوس.

اجاب بعد ان اعاد ترتيب ملامحه المبعثرة

- سأجلب اغراضي وفنجاني وأتي.

ذهب مسرعاً وجلب حقيبته الجلدية المليئة بأوراق دراسته واوراق اخري يكتب فيها خواطره الشعرية، بعض الاقلام وكتاب او رواية ليقرأ فيهم حين يتعب من المذاكرة.

عندما جلس فاضل لم يتعرفا هذا التعارف العادي بين اي شاب وفتاة بل ان كل منهما نادى الاخر بإسم يليق بلقائهم

- أنرت لندن ايها الاسمر.

ابتسم من عربيتها المبعثرة قليلا، يبدو انها تعيش في لندن منذ كانت طفلة وقال

- لندن مليئة بالاضواء لن يؤثر بها وجودي من عدمه روزا، اذا اردتي ان تتحدثي الانجليزية لكِ ذلك فأنها اتقنها كالعربية.

- لا، انا حقاً سعيدة ان هناك شخص يساعدني لأتحدث العربية ثانية، أمي معظم الوقت صامتة واذا تكلمت قالت كلمات معدودة، اما" أولجا" المربية فهي انجليزية وهي من انستني الحديث بالعربية.

- بل من دواعي سروري انا ان هناك من التقي به واناشد صداقته في هذه البلدة بعد عامين واكثر من تواجدي هنا.

- وماذا تدرس هنا؟

- كيف عرفتي اني هنا لأدرس؟

- هل تعلمت ان تجيب السؤال بسؤال اخر؟

- انا ادرس الفلسفة.

- رائع، هذا يعني انك فيلسوف.

- لا ادري هل انا حقاً كذلك ام لا، كل مااعلمه اني اعشق ذلك العلم حد الثمالة، وانتِ ماذا تدرسين؟

انا تخرجت من معهد الموسيقي، أعزف البيانو واغني، صوتي ليس رائع ولكن لابأس به.

- هل تعملين؟

- نعم، في هذا المقهي ليلاً اعزف بيانو واغني.

- المقهي الذي نجلس عليه؟ وهل وجودك هنا وقت عملك؟

- لا ليس الان، يبدأ دوامي الساعة السابعة ينتهي في الثانية عشر ليلاً.

- أتحتاجين لذلك العمل؟

- لا، ميراث امي من زوجها يكفينا حتي نموت.

- ولماذا تعملين اذاً؟

- لاني ببساطة اعشق الموسيقي.

- كيف مات ابيكِ؟

- ابي لم يمت، انه بمصر، ولكن انفصلت عنه امي بعد ان علمت بالقبض عليه، ارسلت للمحكمة شكواها وتضررها من ارتباطهم، فتطلقت.

- ولكنك قلت ان امك لها ميراث من زوجها؟

- نعم، زوجها الانجليزي كان لابد ان تتزوج انجليزيا ليتسني لها البقاء هنا واعطاني اسمه حتي استطيع ان ادرس .

- اذا انسة روزا، سعدت بلقاءك كثيراً الساعة اقتربت الان علي السابعة ولابد ان اتركك لعملك.

- اجلس قليلا واسمع عزفي وقل رأيك.

رد عليها وهو يقف ويضع بعض النقود حساب طلباتهم

- اعدك ان يأتي يوما واجلس لأستمع لكِ ولكن ليس الان، هل فقط لي ان اعرف اين تقطنين؟

- لست بلندن، وانا آتي هنا كل أحد فقط.

- اذا كيف اصل لكِ؟

- سأكتب لك عنواني وراسلني عليه، اتعلم لم أستقبل رسائل منذ زمن طويل رغم عشقي لها، في انتظار رسائلك.

قال لها وهو يتناول من يدها الورقة

- مساءك سعيد أنستي.

ردت تحيته بإبتسامة لطيفة

- مساءك سعيد ايها الفيلسوف.

١٠

ترك فاضل تلك الجميلة وهو يشعر بموجة عاطفية جياشة تقتحم جسمه وروحه، ان هذه الفاتنة تشبه كثيرا فريدته في كل شي، ابتسامتها، عيونها الضبابية كمدينة لندن، حتي لون فستانها الازرق الذي يضفي علي بشرتها الرقيقة نعومة الاطفال، نعم قبل ان ترحل فريدة كانت ترتدي فستان ازرق مع اختلاف العمر والذوق، غرق فاضل في افكاره ايام وايام ولم ينتبه ان قد مر علي هذا اللقاء خمس ايام، يالوقاحته لابد انها تنتظر رسالته منذ ذلك اليوم، اسرع في التقاط قلم وورقة وبدأ يخط

" انستي الغالية روزا

بعد السلام والتحية

اعتذر لتأخري عن ارسال رسالتي لكِ فأنا لم أفق بعد من روعة لقائنا.

فيكِ جاذبية طغت على جاذبية الارض، فأنا لست من نوع الرجال الذين يستميلون النساء لقضاء وقت معهم فقط.

ان النساء عندي كزهرات نادرة فواحة لا مساس بهن فأعذري اي تصرف لي قد ابدو فيه احمقاً او جاهلا.

فأنتِ أول النساء الذي اشعر بإنجذاب غريب نحوها.

لكِ مني كل الورود، وكل الود.

الفيلسوف الاسمر"

أطبق فاضل الرسالة ووضعها في المظروف وكتب العنوان عليها وذهب لأقرب صندوق بريد ووضع فيه الرسالة، ووضع قلبه ايضاً.

يومان حتي أتي فاضل الرد الذي أبهجه، فإن روزا كانت اسرع منه في ارسال البهجة لقلبه، لم ينتبه انه في حرم الجامعة حين فتح الرسالة وقرأ

" عزيزي الفيلسوف الاسمر

تحياتي الطيبة لروحك

اول رسالة اكتبها باللغة العربية فأعذر اخطائي وسوء خطي في الكتابة، سعيدة جدا كوني اراسل رجل مصري مثلي أبث له كل ما بودي ان اقوله دون خوف او شعور بالغربة في حديثنا.

اتمني رؤيتك قريباً وحتي ذلك الوقت لقلبك مني كل سعادة.

روزا"

قفز فاضل فرحاً برسالتها ولم ينتبه ان اليوم هو الاثنين وانه لم يذهب للمقهي امس ولذلك سينتظر حتي الاخد القادم ليراها، لقد نسي تماما الذهاب في خضم مذاكرته والتفكير في الرد علي رسالته، ذهب الي البيت مسرعا وقد بدأ يكتب اليها

" الجميلة روزا

لعيونك الضبابية فرح دائم

اعذريني ان لم آتي اليك امس، فقد نسيت حقاً وسط زحام يومي بمذاكرتي وبالتفكير فيكِ، اليوم فقط ودت لو اعرف اسمك الحقيقي وكل

شئ عنكِ، ويهمني حقاً ان تعرفي كل شئ عني ايضاً، فتجهزي للقاء ودي قريباً

الفيلسوف الاسمر"

رسالة فاضل تلك المرة أربكت روزا بعض الشئ، لا احد يعلم عنها اي شئ، ولكن لايهم في كل الاحوال هي لن تعود الي نصر ابدا كما تقول والدتها، اما هو سينهي دراسته ويعود ولن تراه ثانية فما الضرر لبعض الفضفضة لغريب لن يؤذيها بما يعرف عن حياتها، ولكن لتأخذ بعض الوقت لترتب افكارها قبل ان تقابله، فأرسلت له فوراً

" عزيزي الفيلسوف الاسمر

لك التحية الطيبة دوما

لن اتي الي لندن الاحد القادم فأمي مريضة قليلاً، يصعب علي اخبارك بذلك ولكن هذا ماحدث، تمنيت لقاءك ولكن سيتأجل اسبوعا اخر حتي استطيع المجئ الي لندن، لك اشواقي

روزا"

آلمت تلك الرسالة فاضل ولكنها جعلته اكثر جرأة، في صبيحة يوم الاحد خرج فاضل قاصدا منزل روزا وقد وصل وجهته بعد عدة ساعات، بيت ريفي جميل وسط مزارع وكأنها الجنة، وجد روزا مع سيدة تقاربها في الشبه رجح انها والدتها لكن تبدو ملامحها مألوفة لفاضل، يالذاكرتي المريضة انها تطيح بالاشخاص من رأسي دائماً.

لم يجد بدا من اقتحام جلستهما فبادر بالتحية

فاضل: السلام عليكم سيداتي

نظرت روزا بدهشة ممزوجة برعب، كيف له ان يأتي ولم يخبرها، لكن كانت لوالدتها النصيب الاكبر من الدهشة حيث لم تسمع منذ سنوات تحية عربية من صوتي عربي فردت والدة روزا

الام: عليكم السلام بني، تفضل.

بعد ان انهت كلمتها نادت علي اولجا ان تجلب فنجان شاي وبعض الكعك للضيف، ثم اكملت

الام: من انت، ولمن اتيت هنا؟

فاضل: انا صديق روزا، اقصد ابنتك

نظرت الام لها كمن تعاتبها علي اخفاء علاقة جديدة لابنتها، ثم قالت

الام: اهلا بك، مااسمك يافتى؟

فاضل: هذا ماأتيت لأجله سيدتي، ولكن روزا اخبرتني بمرضك واني لن أراها قبل الاسبوع القادم، فلم احتمل ووجدت نفسي استقل الحافلة الي بيتكم لأتعرف عليكم واعرفكم علي نفسي، بنفسي.

كل هذا وروزا في عالم اخر، تتعاقب عليها الاحاسيس تعاقب فصول السنة، تارة خجل وتارة دهشة وتاوة غضب ولا تعرف لماذا.

فأجابت الام: اذا تحدثا وانا سأستمع لكما، وان كان وجودي سيربك ذلك اللقاء سأنسحب.

فاضل: لا سيدتي علي العكس انا تشرفت برؤية حضرتك جدا، رغم ان وجهك مألوف لي الا اني لا اتذكر اين رأيته.

قطعت روزا الحديث وقالت وهي تصب الشاي لفاضل بعد ان اتت به اولجا

روزا: ابدأ انت بالحديث ريثما استجمع شجاعتي

فاضل: لا بأس، انا فاضل حسين خطاب، من محافظة المنيا، لي اخوين واخت يكبرونني، عامر، عادل، عفاف، درست بكلية الاداب قسم الفلسفة وخرجت من الاوائل لذا كنت علي رأس البعثة الدراسية للدراسات العليا هنا بلندن.

صدمت الام لما سمعت، صعقت روزا وقتما علمت من يكون ذلك الرجل الشاب، ولم يستطيعا ان يخفيا شعورهما مما جعل روزا تركض الي داخل البيت وهي تبكي، ثم نظر الوالدة وقال

- ماذا حدث سيدتي، هل اخطأت في شئ؟

- لا يافاضل، لم تخطئ انت فقط أعدت الينا اوجاع سنين مضت.

اذهل فاضل رد السيدة وقال

- كيف؟ لا افهم شئ.

- انت لا تعرف من نحن، اذا اسمع يافاضل، انا ليلي عزيز السمري زوجة شوكت السمري، وهذه ابنتي فريدة صديقة طفولتك، علمت الان ماذا حدث

بُهت فاضل واعترته الفرحة في نفس الوقت، انها الفتاة التي بسببها ابتعد عن كل الفتيات وحين انجذب لفتاة كانت هي فريدة، ياللقدر !!!

قام فاضل وهو يستأذن للدخول الي فريدة، فأذنت له ليلي، فدخل وعرف غرفتها من صوت بكاؤها، فطرق الباب قليلا ثم دخل، ليراها جالسة علي الفراش تبكي وعندما اقترب وربت علي كتفها، قامت واحتضنته بشوق الاطفال لا بعشق الكبار وقالت

- ايها القاسي اشتقت لك كثيراً، كنت اشعر بداخلي عندما قابلتك انك تحمل جزء من فاضل، ليتني فطنت انه انت.

طوق فاضل جسمها بشدة وهو يقول

- ياه فريدة، لو تعلمي ماحدث لي في غيابك وكيف كان طيف ابتسامتك يهون علي كل شي.

وبجوار الباب المفتوح جاء صوت ليلي تستأذن للدخول كي توقف تلك الدراما قليلا، فلم يصبح فاضل او فريدة اطفال علي هذا العناق العفوي، فبادرت

ليلي: الا تظنوا ان هذا العناق لايناسب سنكم؟ لم تظلوا اطفالا يكفي هذا.

فاضل: عذرا سيدتي، يعلم الله ان هذا عناق برئ، الان فقط اشعر اني عدت طفلا مجددا.

فريدة: صدقيني ياامي، منذ تركت مصر واتيت الي هنا تركت فيها كل شيء يدعني طفلة وكبرت سريعاً جدا في البلاد الغريبة.

ليلي: اذا طفلاي العزيزان هل لنا ان نتناول الغداء سوياً قبل ان يعود فاضل الي لندن؟ فهناك قصة لايعلمها احد سوف احكيها لكما.

قاربت الساعة علي الثالثة فجهزت أولجا مائدة الطعام ونادت سيدتها وفريدة وضيفهما لتناول الغداء، دقائق وبدأت ليلي حديثها

ليلي: اتعرف اني كنت احب اخيك عامر في صغري، وكنت اشعر انه ايضا يبادلني نفس الشعور ولكنه استحى ان يحدثني بما يعتريه خوفا من سطوة ابي رحمه الله، ليته كان اعترف بحبه لي كان سيتغير مصيري تماماً، وقد تصبحين وقتها ابنة عامر حبيبتي

فقال فاضل بسرعة

- وقتها كانت ستصبح ابنة اخي ياسيدتي ومن محارمي

ضحك الجميع وفي كل قلب منهم عشق دفين، قضي فاضل اليوم مع ليلي وفريدة حتي الساعة التاسعة ثم رحل الي لندن.

١١

تكررت زيارات فاضل لفريدة وليلي وتوطدت العلاقة بينهم واصبح فرد من عائلتهما الصغيرة، وجاء اليوم الذي ناقش فيه فاضل الدكتوراه وحضرت ليلي وفريدة وقد نجح بامتياز ولكن السعادة ليست دائمة، في غضون اسبوع سيعود فاضل علي مصر بعد ان مضي مع فريدة وليلي مايزيد عن العام واصبح فراقهما عسير جدا علي نفسه.

فاضل: عودي يافريدة معي

فريدة: ليس بيدي صدقني، اود اني لو لم اذهب منها في صغري ولو الامر بيدي لعدت فوراً.

ليلي: لازال والد فريدة بمصر وقد يأتي ليأخذها مني حين عودتنا.

فاضل: ومن اين له ان يعلم بوجودكما؟ سنحميكم بأرواحنا، ارجوك سيدتي فكري ملياً.

ليلي: سأتصل بالمحامي في مصر وان اتي لي باخبار انه ليس خطر على وجودي وفريدة بمصر سنصفي املاكنا هنا ونعود فوراً

فريدة: اصغ لها يافاضل فأمي لاتعود في كلمة قالتها.

فاضل: اذا سأنتظر لقائكن قريباً.

ودع فاضل عائلة الجديدة الصغيرة وعاد الي مصر، ذهب فور عودته الي بلدته مع استقبال وترحاب شديد من اهل القرية واهله، وارتمي في حضن امه المشتاقه له منذ سنوات.

لقد علم بموت اخيه عادل ولم يرد عامر ان يخبره بأي خبر سئ، لم يتأثر كثيرا لموته، بل شعر ببعض الراحة، بعد شهر جائه رسالة فقد تم تعينه بالكلية ذاتها التي تخرج منها يدرس هناك الفلسفة، وقد تحتم عليه الانتقال الي القاهرة للعيش هناك.

منذ بدأ العمل بالكلية انقطعت رسائله مع فريدة، وظن ان لقائهما لن يحدث ثانية، ولكن للقدر دائما تدابير اخرى، عاش فاضل حياة واسعة بقدر مدينة القاهرة، سهر وسفر وحياة ليل عابث ونهار فيلسوف حكيم، مزدوج الشخصية، ذو اقنعة كثيرة يرتديها كلا حسب موقفه، وقد تفوق في ذلك.

لقد اشتهر جدا بين طلابه وذاع صيته حتي اصبح له محاضرات خاصه في احدي النوادي عن الفلسفة وكيف يتعايش الناس بها وفيها، واصبح اسم" فاضل حسين خطاب" خلال عام كبريق الذهب يلمع حتي في الظلام.

يجلس بين جدران غرفته ذات الضوء الخافت، يدخن لفائف تبغه دون توقف يحاول أن يأسر تلك الفكرة التي سلبته كل ثقافته ليصل إليها، ورغم ذلك لم يحدث، يريد أن يطرح فلسفته الخاصة في حياة لطالما كانت كاللغز الذي يريد فك شفرته، يريد أن يصل لهوية جديدة للحياة، شئ لم يصل إليه من قبل، فلم يجد إلا الانغلاق على ذاته لأيام ليكتب ويكتب حتي ينتهي من سرد مايروم إليه.

دقائق وكسر صمت يومه جرس الباب، فقام متأففاً يسب ذلك الذي قطع حبل أفكاره، وعندما فتح الباب وجدها تقف أمامه شبه مخمورة ترتدي ذلك الفستان الاحمر الذي يعشقه، بادرته وهي تنفث دخان لفافتها

بوجهه: أشتقت إليك، فجذبني الشوق لك دون أن أشعر، هل ستدعني أدخل أم ستتركني هكذا على الدرج؟ ش

إنها(دلال) خمرية كقنينة نبيذ معتقة منذ زمن، فارعة الطول،تملك عينان لوزية اللون وشعر غجري طويل تتركه منسدلا ليخفي ظهرها العاري، انها لم تسلك درب الغواني بل هي غانية له هو فقط، تعمل جارسون في احدي بارات الفنادق، ومنذ لاقته اول مرة في البار وقد تعلق قلبها به، وبعد عدة لقاءات توطدت علاقتهما حتي وصلت للفراش.

أفسح لها المجال كي تعبر فذهبت إلى غرفته التي تحفظ الطريق إليها جيداً، وجدت كومة الورق الذي كان يكتب بها فنظرت إلي الخلف حيث يقف عند باب الغرفة وهي تقول :

- هل ذنبي أني أحب فليسوف وشاعر لأرى كل مرة تلك الكومة من الورق تغطي أرضية الغرفة؟

- نظر لها وكأنه حفظ ماقلته كثيراً قبل : نعم، هذا ذنبك.

أقبلت وهي تلقي بنفسها بين أحضانه بغنج يعلم ماهيته جيدا، فرفعها ووضعها على الفراش ثم أطفئ ضوء الغرفة، فهو لا يحب أن يرى نفسه وهو يمارس الخطئية التي بعد أنتهائه منها دوما يلوم نفسه ويلقي بتلك السيدة خارج البيت بمزيد من اللعنات على شهوتها الجامحه فيه وشيطانها الذي لا ينفك عن مراودتها ومراودته ليقعا في البئر المظلم سوياً، ورغم ذلك تمر الايام ويعود لجموح شهوته وكأن الندم خمد وأكلت نيران الخطيئة ضميره.

صباح اليوم التالي أستفاق ليراها راقده بجواره، فأيقظها لتنهض متثاقلة ترتدي ملابسها وتولي وجهها نحو الباب وتمضي دون النطق ببنت شفة، قام وأغتسل من أثر تلك الشرسة وصنع فنجان قهوة ليغرق تلك الضوضاء المقيمة في رأسه وبعد دقائق أتت البعيدة حتي ناصيته ووقفت تلمع بين عينيه وتعلن عن نفسها، إنها الفكرة التي أرادها سحب قلمه سريعاً وبدأ معها حوار هادئ يستميلها به:

- لماذا تأخرتي هكذا؟

- أنتظرت حتى تعي ثقلي في نفسك.

- ولماذا الآن؟

- منذ قليل أستعبت حجم ما أنت عليه، وهنا فقط جاء دوري لنتحدث قليلاً.

- أفضي بما يعتريك فكرتي الغالية.

- هل تعلم مايؤرقك؟

- لا، مجرد احساس مجهول يشعرني بالضيق.

- بل إنه معلوم جدا، وكنت تمارسه منذ سويعات قليله هنا، علي نفس ذلك الفراش.

- أتقصدين تلك السيدة.

- لا، بل أقصدك، أقصد شهوتك ياصاحب الفضائل، هل تصدق ذاتك وأنت تخطب في الشباب عن الفضيلة ومايتبعها والرذيلة مايخلفها وانت تلهو خلف الستار بتلك الرذيلة؟

- أنا اندم

- وماذا يفعل الندم في قلب جلمود؟

- ولكن الندم بداية توبة.

- هذا ماتقنع به نفسك الأمارة بالسوء، فلتكن صادق مع ذاتك وأقتنع أنك ذا وجهين، تكيل بمكيالين، تجاهر بالحق وتدعي الصلاح وأنت على عكس ماتظهر.

- أنا أفضل من المجاهرين بالذنب.

- مثلك يعرفون بأسم أخر، تعلمه أم أخبرك أنا به.

طأطأ الفيلسوف رأسه، فعادت فكرته لحديثها.

- المنافقون ياشاعر، تحترم المرأة وفي نفسك تذمها، تبجلها وعلى فراشك تهينها وتذلها، هل هناك شي اخر؟ نعم، الكذب ياعزيزي الكذب.

- انا لا أكذب ابداً.

- هذة الجملة في حد ذاتها كذبة.

- وماذا بعد؟

- مللت رفقتي سريعاً؟! ألم تجلس الساعات والايام تستحضرني بشتي الطرق وتستحلغني بكل غالٍ وعزيز ان آتي كي تصير صاحب الريادة في جمع الافكار الفلسفية القوية؟

- لا لم أمل منكِ، ولكني لم أستسغ حديثك.

- الحقيقة تؤلم دائماً، دع عنك ثوب العلياء والغرور وقف أمام مرآتك لحظات صدق مع نفسك، أسألها هل هذا الشخص الذي تمنيته يوماً؟ أردت أن تصبح كسياج جميل مزركش يحيط بالخرائب؟

- أنا الفيلسوف، أنا صاحب رؤى ونظريات يتبعها آلاف بل ملايين من الشباب، تأتي فكرة حقيرة مثلك تجعلني أضحوكة بيني وبين ذاتي.

- ضف على نفاقك وكذبك أنك نجرسي متعجرف، هل تعي حجم العُقد المعلقة بين أضلعك؟

- أصمتي، أذهبي عني فأنا لا أريدك.

- أواثق أنت أنك تريدني أن امضي وأتركك

- نعم

- لن آتي مجدداً ابداً

بغضب أتبعة كسر فنجان القهوة وطاولة الكتابة ونثر الاوراق بالغرفة.

- أرحلي الان.

- سأرحل ولكن كلمة أخيرة، الفلسفة يا عزيزي سجن وضعت بـه نفسك وأنت غير مذنب، أردت ان تضع قناع لتخبئ تشوهات نفسك ولم تعلم أنـه قنـاع حديـدي، وقتمـا وضـعته أنـدمج فيـك حتـي أصـبحت تكـره الاعتراف بالحقيقة بينك وبين نفسك، لن يفيدك الندم ولن يكون أول درجات التوبة.

أختفت تلك الشفافة بعد أن مخضت داخله حياة راكدة، كماء موحل قذف به أحدهم حجراً كبيراً فطفى علي السطح الوحل وبقي الم الحجر في نفسه.

بعد فترة ليست بقصيرة تثاقل علي نفسه وقام، أرتدى ملابسه وغادر المنزل وانطلق إلى أحدى محاضراته الفلسفية، دخل قاعة المحاضرة ليجدها مليئة عن أخرها بالشباب من كلا الجنسين، شعر بالتوتر الشديد لاول مرة وقد سرت في جسده قشعريرة تصل حد الحُمى، فطلب أن يعتذر عن إلقاء المحاضرة ولكن القائمين عليها رفضوا وقالوا له

- عفواً سيدي هذة المحاضرة تم تأجيلها خمس مرات حتي الان.

رد فاضل بذهول

- ماذا؟ تم تأجيلها خمس مرات؟ كيف؟ أليس اليوم هو الاول من مارس؟

نظر المنظمين لبعضهم البعض وقال احدهم

- العفو منك، اليوم الاول من مايو.

صعق فاضل مما حدث، حوار واحد مع إحدى افكاره أستغرق منه شهران، أخذ كل ذلك الوقت في مواجهة ذاته والتعري من حقيقة زائفة؟

ترك المنظمين ورحل على الفور إلى بيته، دخل غرفته وأغلقها وظل يبحث عما كتبه مع تلك الفكرة فلم يجد شي، الا اخر جملة من حديثها "الفلسفة يا عزيزي سجن وضعت به نفسك وأنت غير مذنب، أردت ان تضع قناع لتخبئ تشوهات نفسك ولم تعلم أنه قناع حديدي، وقتما وضعته أندمج فيك حتي أصبحت تكره الاعتراف بالحقيقة بينك وبين نفسك، لن يفيدك الندم ولن يكون أول درجات التوبة".

قام من جلسته وظل يصرخ ويصرخ ويكسر كل شئ حوله، دقائق وسمع طرق علي باب الشقة وعندما فتح وجد (دلال) تنتظره كالعادة فأدخلها بعصبية وهو يصرخ فيها قائلا

- قولي لي متي أخر مرة ألتقينا؟ أليس أمس؟

نظرت له وهي في حالة دهشة وقالت

- أمس؟ لا أخر مرة كنا فيها معاً منذ شهران تقريباً، مابك ياحبيبي هل انت مريض؟

أجابها بشرود

- هل تعني أني بقيت معها شهران نتحدث ولم أشعر؟

ردت بغيظ

- معها؟ من هي التي نسيت الايام معها؟

لم يشعر الا وهو يصفعها ويخرجها من المنزل، ثم دق جرس الهاتف، فرفع السماعه ثم سمع أحدهم يقول : الفيلسوف معي.

رد بصوت يصل للبكاء : الفيلسوف مات.

١٢

لقد ماتت فلسفته ذبحاً على يد الازدواجية الشنيعة التي تشبع بها من عاداته بأن يكون فاضل يحمل لواء" الفضيلة" وفي ستار الليل يسحقها علي فراش الرغبة.

عاد الي بلدته يحمل غصة الماضي تجاورها غصة جديدة، موت احدى شخصياته الظاهرية، لم تخطئ أمه صوت طرقاته على الباب وجرت بما استطاعت من صحة لتلحق به ويرتمي بين احضانها يرتشف من بين ثناياها بعض الصدق والحب.

لم يعلم أنه سيرى تلك الفاتنة ثانية فقد نسى تقريباً طهر عيناها من كثرة مارأى من عيون شهوانية، انها(فريدة) وهي كأسمها فريدة، لم يرها منذ ان كانا بلندن منذ اكثر من عام تقريباً، اشتاق لها والكتابة اليها كما كان يفعلاننفجلب ورقة وقلم وبدأ يكتب.

" ملاكي فريدة:

تحية طيبة وبعد...

- ماذا بعد؟!

لا اعلم سبب تلك الرسالة التي اخطها حتي الان، لكن كل مأيقنه هو أنكِ شغفتي ذلك القاسي، ان روحك البريئة وبقايا الطفولة المعلقة بأذيال ثوبك التي تمنحك النقاء هم من جعلوني أحلق خلف خصلات شعرك الذهبي كي لا أضل الطريق.

- ماذا بعد؟!

منذ اخر لقاء جمعنا تمنيت لو ان القدر يرسل الي ملاكه ثانية كي ينتزعني من اوحال نفسي ولكن تأخرك في المضي قدما الي جعلني اغوص حتي أذني، وبعد اليأس تأتي تلك الفكرة التي أخرجتني من ضياعي وأعادتني الي هنا.

- لا اريد ياعزيزتي شيئاً سوى رؤيتك ثانية، فلكِ مني كل الشوق، كل السعادة، وكل العشق.

فاضل"

أطبق فاضل المظروف علي رسالته وذهب الي القصر ووقف قربه يفكر كيف يصل لها الرسالة، وفي لحظة ما طلت الرقيقة من شرفتها فرأته بادرها الاشارة ان لها حاجه عنده يريد ارسالها، فأشارت لصندوق البريد المعلق بجوار بوابة القصر في الحديقة، فذهب خلسة ووضع رسالته في الصندوق وانصرف، وقف يراقب بجوار السور ماحدث، فوجدها هرعت الي الصندوق واخدت مافيه ونظرت له لتؤكد ان كل شي علي مايرام، ثم انصرف الي بيته ينتظر ردها بأحر من الجمر.

صعدت فريدة الي غرفتها سريعاً غير عابئة لصوت مربيتها الانجليزية (أولجا) تناديها لتناول الغداء مع والدتها، ومااان زلفت غرفتها حتي احكمت اغلاقها وجلست تقرأ ماأرسله فاضل، كم هي سعيدة انها علمت حقيقة شعوره نحوها وظلت تقرأ الرسالة مرات ومرات وفي الليل جلست تكتب الرد.

في الصباح ذهبت فريدة الي بيت فاضل وعند نافذة غرفته وجدتها نصف مفتوحة فتأكدت انه بالداخل، ألقت الرسالة من بين دلفتي النافذة ولحظها الوفير سقطت فوق مكتب فاضل الذي يعشق دوما الجلوس امامه ليتسني له النظر من النافذة مباشرة الي الزروع والاشجار، ثم ولت الي بيتها حتي لا يراها احد.

ساعات واستيقظ فاضل خرج الي المرحاض ونال حماماً أنعش جسده ثم ذهب الي غرفته ليتناول علبة سجائرة من اعلي المكتب، ليجد مظروفاً ملوناً بلون عيونها ويفيح رائحة العشق من بين ثناياه، فجلس علي الكرسي امام المكتب وفض المظروف سريعاً وبدأت تأكل عيناه الحروف أكلاً كأنه يبحث عن شيئاً خلف السطور، فقرأ

" عزيزي فاضل:

أشواقي وقبلاتي لك...

- منذ متى ونحن نسأل عن القادم؟

نحن نترك القادم يأتي كما يريد، دعنا نحيا اليوم بكل مافيه واترك افكارك الصغيرة الشقية عن المجهول تتراقص بعيدا عن عقلك المتقد المتزن.

- لم أنسى بعد لقائي الاخير معك بلندن، جعلني أيقن جمال بلادي التي كنت أفتقدها جدا، والتي سعت امي جل سعيها كي تبعدني عنها خوفاً من ابي الذي قد يحرمني منها.

- ينقصك الكثير من الوقت يافاضل حتي يتسني لك عشقي، وحتي يأتي ذلك الوقت لا تغلق ابواب قلبك، فأنا حتماً قادمة اليه، ولكن بالوقت المناسب.

فريدة"

قفز فاضل فرحاً كأنه طفل علم للتو نجاحه في فصله الدراسي، وظل يستنشق الورق والحبر بالرسالة وكأنه يملأ صدره بعذرها الانثوي الفتاك، ومن اجل تلك السعادة بقي يومان مستيقظ يفكر فيما سيكتب من جديد، ثم عادت الافكار تراوده عن قلمه الفلسفي فيكتب لها رسالة قوية لابد لها من رد يتيح له الفرصة معرفة مابرأس تلك الجميلة من افكار، فجلس يكتب بسعادة عارمة.

بعد عصر اليوم الثالث ذهب الي القصر وجدها تأخذ الشاي في الحديقة مع والدتها، فدخل يلقي السلام عليهما ويرحب بوجودهما من جديد في بلادهم، فدعته ليلى لأخذ فنجان من الشاي فأعتذر وعبر عن رغبته في فنجان قهوة بدلا عن الشاي، فقامت ليلى تنادي أولجا لتطلب من الخادم فنجان قهوة لفاضل، وفي ذلك الوقت اخرج فاضل سريعاً الرسالة واعطاها لفريدة التي خبئتها سريعاً في إحدي جيوب ثوبها.

عادت ليلى وبدأت في حديث طويل مع فاضل سألته عن احوال الاهل والمستجدات فيها، وامتد النقاش الي لندن وانبهارهم من تطوراتها، وأكدوا جميعاً أن التكنولوجيا بدخول الراديو والتلفاز والتليفون أجهظت الاجتماع الحسي بين البشر رغم سرعة انتقال الاحداث او اللقاء، وظلوا في حديثهم حتي مالت الشمس وبزغ القمر في السماء فاستأذن فاضل للرحيل فسمحتا له ليلي وفريدة مع وعد باللقاء ثانية.

عادت فريدة وأمها الي الداخل، تحججت فريدة ببعض الصداع الذي انتابها جراء الحديث مع فاضل صديق طفولتها وصعدت الي غرفتها لتوصدها كالعادة وتجلس تقرأ جديد طرحه

" ملاكي فريدة:

أسعدني ردك اما بعد...

- أريد مقابلتك، يجب ان اتناقش معكِ في أمور تخص حياتنا القادمة، وأتمني أن لا يضايقك طلبي فأنا أريد فقط ان اتعرف عليكِ اكثر ولكن علي طريقتي.

ملحوظة: سأترك لكِ نافذتي مفتوحة تلك المرة.

فاضل"

لأول وهلة أدهشتها الرسالة وقد توقعت انها ستنال قسطاً من العشق فيها، لم تكن تعلم ان" عضلة" الفلسفة لدى فاضل لم ولن تموت، يحركها دوماً في أوج عصبيته وفي هدوء نفسه، فهي تعلم انه سيجعل الحديث مشوقاً الي حد ما، بقت ساعات تحاول الرد علي رسالته لكن دون جدوى.

مر اسبوع ولم يتلقى منها اي رد، رغم انه تردد عليهم في القصر ثلاث مرات ليتسامر مع ليلى ولكن لم يقابلها في اي من تلك المرات، وكان يترك كل ليلة نافذته مفتوحة علها تأتي ولكن لا فائدة، لقد ضاق ذرعاً من تجاهلها وشعر بالاهانة وفي نفس الوقت اشتد الشوق به وآلم قلبه قلة

الرؤى، وعاد الصراع داخله بين عشقه وكبرياءه وظل هكذا حتي الفجر فغلبه النوم وهو يجلس علي المكتب.

بعد ساعات شعر بشئ يسقط فوق رأسه، أنتفض بجسده عن المكتب فوجدها ألقت المظروف وهمت بالرحيل، حاول اللحاق بها كي يستفسر سبب التأخير فأوقفته أمه في ساحة الدار تلقي عليه الصباح وهي تقدم له الفطار، فوقف عاجزاً أيترك امه ويلحق بها ام يقف معها ويترك فريدة نرحل بدون أن تطفأ نار شوقه، فقبل جبين امه وامسك منها ماكانت تحمل وعاد الي غرفته كي يرى رسالتها، فتح المظروف ليجد ان الرسالة عبارة عن سطر واحد فقط، شعر وقتها ثقل ماأحدثه بها.

" عزيزي فاضل:

بعد التحية والسلام...

موافقة على طلبك، غداً في الخامسة مساءاً بحديقة قصرنا.

فريدة"

زفر فاضل كل مايعتري صدره من شوق وخوف ولكن بعض القلق يساورة حيال اقتضاب ردها، لكن غداً لناظره قريب فلما العجلة.

١٣

مرت الساعات علي فاضل دهراً، ينتظر الساعة تدق الخامسة حتي يهرع اليها ويشبع العين والقلب من رؤيتها، واخيراً حل الوقت وكان هناك في الموعد بالضبط، وجدها جالسة تنتظره وخلفها أولجا تأتي بالشاي والبسكويت الانجليزي، رحبا ببعضهما ثم أذنت له بالجلوس ليبدأ الحديث، بادرت فريدة وهي تناوله فنجان الشاي:

- اسئلة كثيرة تدور برأسك الان، صحيح؟

اجابها بعد ان ارتشف قليلا من الشاي

- صحيح.

صمتت قليلا وهي تضع فنجانها علي الطاولة بعد ان ارتشفت منه القليل:

- لن اترك الحيرة تنهشك كثيراً واجيبك عن كل ماتريد.

ابتسم فاضل بارتياح ورشف قليلا من الشاي وصمت حتي يسمعها جيداً، فقالت:

- سبب تأخري عن الرد هو اني كنت في حالة اعياء نفسي، لا اعلم لماذا ولكن هكذا شعرت، فكرت كثيراً وقلت ان اللقاء خير وسيلة.

تنحنح فاضل في جلسته وسألها:

- لماذا اليوم؟!

- لان والدتي عزمت علي السفر الي احدي صديقاتها باحدي القرى المجاورة ولن تعود الا ليلا فهذا يعطينا متسع من الوقت كي نتحدث.

أرتسمت علي شفتيه ابتسامة واسعة مافتيئت ولدت حتي وئدت من نظرتها الحادة له، فعاود يسألها بجدية:

- نبدأ حديثنا إذاً؟

اخذت الفنجان بكل هدوء واعادت ظهرها الي الوراء لترتاح بجلستها ثم قالت:

- بالطبع، تفضل

ألقى عليها كلماته بجدية غير معهودة:

- شخص في مثل جمالك وثقافتك الاوروبية كيف يرى الصداقة؟

نظرت قليلاً الي فنجانها وكأنها تستشف منه الاجابة ثم رفعت بصرها الي فاضل وقالت:

- أجدها قارب صغير يعتليه اثنان احدهما أعمي لكنه يستطيع التجديف والاخر مبتور اليدين يجيد النظر، فتكتمل الرحلة بالود والحب والألفة.

رد يقول:

- معك حق ولكن اذا كان الاثنان عميان او مبتورا اليدين، كيف تؤل بهم الحياة عزيزتي؟ أليست تكون الحياة ظلام دامس خالي من الحس؟

اجابته:

بالتأكيد، الصداقة مثل الحب يتكاملان ولا يتساويان.

بخبث الرجال المعهود دس سؤاله:

- ماذا تعرفين عن الحب؟

نظرت الي الارض وقد ارتعشت اهدابها حياءاً وصار صوتها هادئ من الحدة وقالت:

- انه ذلك النبيذ الذي لايعرف من اي كرم قطف او في اي دنان عُتّق أو في اي عصر صنع، ولايوجد كأس يحويه، ليس له سوى القلوب.

لاحظ فاضل ارتباكها فأراد استغلال الموقف لصالحه فأردف:

- والاهتمام، هل يؤثر على الحب؟

نطقت بكل ثقة وسرعة:

- اكيد، كيف لك تستصيغ الطعام دون ملح؟ الاهتمام هو ملح الحب، بدونه يكون الحب لاشئ، ميت، مسخ، لاطعم له، ولكن من مسببات ضياع الحب او لنقل انه السبب الرئيسي في قتله هي المشاكل مابعد الزواج.

ارتشف اخر ما بفنجانه، هم بوضعه علي الطاولة حينها التقت عيناهما وقال:

- كيف هذا؟ أوليس الحب زواج؟

قالت:

- الزواج هو العلاقة الوحيدة التي تُعدم فيها المثالية علي مذبحة الواقع.

صدمته كلماتها، لم يكن يتوقع هذا الرد ابداً فسارع بسؤالها:

- كيف لم افهم بعد؟

عادت تنظر اليه بعد ان رُدّت اليها ثقتها وغلبت الخجل في معتركه فقالت:

- اي علاقة نستطيع ان نمارس فيها المثالية حتي تمر بسلام بينما الزواج هو العلاقة الوحيدة التي تتعرى فيها من مثاليتك يوم لحظة تعريك من ملابسك للدخول في لحظاتك الحميمية الاولى، وهذا للرجل والمرأة وليس للرجل فقط، لذلك ينقشع حجاب الحب مع الوقت وتثاقل المسئولية مما يجعل احد الاطراف يمل الحياة ويقرر اما يهجر او يعيش كالمُهّجر وسط بيته، وبالطبع ستكون حتي علاقتهما الحميمية في أردء صورها.

فأجابها مستفسراً:

- وماذا عن من قال ان (الزواج يساوي جنس)؟

أجابته وقد تركت فنجانها ورفعت ساق اعلي الثانية:

- من قالها لم يتجرأ علي ممارسته دون زواج خوفاً من غضب الاله، فمارس الزنا بعقد شرعي.

ضربة في مقتل حقاً، لم تتوقف عن تحطيم توقعاته فيها او في ردودها، فرشقها بسهمه السام وقال:

- والجنس مايعنيه لكِ؟

شعرت بدنو الطعنة من قلبها، تماسكت كما عادتها وقالت:

- هو ميكافيلية الشبع، ولا يعني لي اكثر من ذلك.

بغباء رد سريعاً:

- بمعني؟

هنا شعرت بان فرصتها أتت كما تشتهي لتريه كيف تكون فلسفة النساء فقالت:

- المقصود ان الجنس ما هو الا وسيلة لغاية الشبع، والشبع الحسي قد يشبعه كلمة رقيقة او هدايا صغيرة، انما الشبع الجسدي له عده وسائل {الطعام، الشراب، والجنس} بالتالي هو احدي وسائل الشبع الجسدية لااكثر وان شابته بعض العاطفة فيكون من حب سبق تلك الوسيلة.

شرد قليلا بعقله وهو في حيرة يحدث نفسه: "كم انتِ قاسية وأصبحت اجاباتك باردة حد الوجع، كيف لكِ معاشرة رجل لمجرد سد جوع جسدك كما انكِ رأيتِ العاطفة شائبة تلوث تلك الوسيلة."

اعادته من شروده بنبرة صوتها التي ارتفعت لجذب انتباهه وقالت:

- اين انت من مجلسنا؟

اجابها بوهن من طُعن بالظهر:

- ها هنا، اذا ان لم يستطع احدهم الامتزاج ومعايشة الحميمة قد تحدث الخيانة؟

فأجابت وهي تحاول التخفيف من حدتها التي وضح تأثيرها علي وجه فاضل:

- أتعرف ماذا تعني الخيانة اولا؟ إنها نتاج علاقة اثنين، احدهم سريع الجوع والاخر سريع الشبع، بمعني ان لو الخيانة زوجية- ليست جنسية بل عشقية ايضاً- ستجد ان الرجل مثلا سريع الجوع في المشاعر والجنس فتجده يشبع ببطئ وبعد وقت قصير يجوع، والمرأة تجوع كثيراً ولكنها تشبع بسرعة منه، فتقف العلاقة بينهم دوماً ع حافة الهاوية، اما هو يضحي كي تشبع هي ويبقي هو جائع دون شبع او تضحي هي لتأكل زيادة عن احتياجها حتي تستطيع اشباعه، فلا يحصل احدهم علي الراحة فيبحثون عنها خارجاً.

سألها بألية وكأنه لم يستفيق بعد من طعنته:

- ماذا عن خيانة الاصدقاء؟

اجابت بعد صمت حاولت فيه النظر لوجهه الذي يزداد اصفراراً وشحوباً:

- طمع احدهم في الحصول علي القارب وحده فيرمي احدهم بالاخر في البحر فان كان الاعمي سيضل الطريق بدون البصر وان كان المبتور فسيقف في وسط البحر دون تجديف.

قبل ان يعاودا الحديث طلب منها بعض الماء فقد جف حلقة، فذهبت واحضرت الماء بنفسها فتجرع الكأس كله دفعة واحدة، وبعد دقائق عاد كما كان من قبل يهيأ نفسه لجولة جديدة معها، فسألها:

- هل تخشين الموت؟

نظرت بحزن الي القمر الذي شهد علي محاورتهما ثم عادت اليه وقالت:

- الموت هو دعوة لاستقبال حياة مديدة لا فناء بعدها، فكيف نخشى أقتحام ذلك المجهول المؤدي للأبدية؟

جل ما أخشاه حقاً هو مقابلة ذلك الملاك الذي يحمل على جناحيه أرواح صارخة وأخرى مهللة وهو عن حال الجميع أصم، أخشى رؤية وجهه الذي قد يكون غير وسيم فأكون أفنيت عمري في القبح لأرى قبحاً أكبر

- قبح؟ أي قبح تعايشته أنتِ؟

- عايشت قبح النفس وشهواتها التي لا تنتهي.

عاد بظهره الي الوراء يستريح علي الكرسي وهو يقول لها:

- هل الشهوة متعددة؟

نظرت له بذهول من لا يتوقع السؤال، ثوان. واجابت:

- اكيد

فرد سريعا:

- كيف؟

ابتسمت هنا انتصاراً علي فيلسوفها لتبدأ في سرد فلسفتها الخاصة وقالت:

- اذا اسمع قصة ذلك الرجل البائس الذي قابلته في لندن، حكي لي ماذا فعلت شهواته به، لكن الحياء منعني من الرد امامه فقلت له سوف اجيبه في رسالة حتي لا أرى ردة فعله، وافق الرجل وعند عودتي البيت كتبتها وارسلتها له.

هاجم الفضول فاضل وسألها:

- وماذا كان ردك فيما قاله؟

قامت عن كرسيها وبدأت تتحدث وهي تدور حول فاضل فبدأت:

" عزيزي الرجل الحزين:

الشهوة ليست في نفوذ أو طموح أو مال أو حتى جنس، بل الشهوة هي كل ماترغبه نفسك حتى لو كان أقل القليل، فأين أنت من كبحها وإحكام لجامها بالحق؟ تركتها تعثو بنفسك وروحك فسادا وتشيع الفاحشة والأنانية والحقد في ارجاء قلبك، الشهوة ليست شيطان رچيم نستعيد بالله منه فينجلي، بل هي نفس غير راضيه بما قُسم لها فلن تشبع ابداً لن تغلق عليها باب الحمد وتطلب من الله زيادة رزق حلال.

ينظر البعض احياناً للشهوة على إنها حق مشروع، وأن من حقهم كبشر الأستمتاع بكل شي وأن ماحرمه الله ليس إلا لفقرهم، أما أصحاب المال فلهم كل المتع، وكيف لا وهم يرون السارقين والظالمين يزدادون تجبراً

وثراءً ولا يقف أمامهم شئ، نسوا أن حتى تطلعهم لما لهم شهوة تأتي من النفس الأمارة بالسوء.

بعد ذلك يأتي جحيم ربك في دنياك وآخرتك، تركتك هي ومضت، لن يأتيك بها القدر أو الصدفة فهي تختبئ بداخلك تنتظر لهثك ورائها في البحث عنها، بصمتها لازالت عالقة بروحك ومذاقها أنعش أوردتك فكنت لها كالمدمن الذي أسري في دماءه مخدر قوي وفجأة أنتهى ولم يجد مايسد رمق شهوته، تركتك كالمجنون تبحث عن سراب أخذك إلى نهاية تؤدي إلى بداية مدمرة.

فريدة"

انتاب فاضل دهشة قوية من فصاحة محبوبته وفلسفتها الراسخة عن تلك الرذيلة، فقال:

- وماذا كان رده علي رسالتك؟

جلست فريدة قبل ان تتحدث واسترخت علي كرسيها وقالت:

- دعاني الي حفل قبوله في ذمرة الراهبين بالدير الخاص بالكنيسة، لقد طبق كلماتي عن روعة الزهد وتقبيح الشهوة والتحق بالدير

- فريدة

- نعم.

- أنا أحبك.

نظرة لـه بدهشـة يتخللهـا الخجل ثم اشـاحت بوجههـا بعيداً وهـي تتمتم بشفتيها دون صوت مسموع

- أنا ايضا احبك.

وهنـا فقـط شـعر فاضـل انـه اخيـرا وجـد مـن تشـبهه وتكتمـل معهـا الحياة،.وبعد عدة لقاءات في حديقة قصر جدها عزيز السمري او بين حقول والده حسين خطاب قررا حياتهما رغم أنف الكثير.

تزوج فاضل من فريدة من مباركة والدة كل منهما فقط أما بقية العائلتين صاحبتهم باللعنات التي أضطرت" حفيدة البشوات" أن تتزوج فلاح من الرعاع، وابن الصعيد ان يتزوج" خوجاية" يتلون وجهها بلون غير لون تربة اهل ماقوسة.

حفل زفافهما كان بسيط وهادئ، عقدا قرانهما في المسجد ثم سافرا الي القاهرة حيث شقة فاضل القديمة، أرسل قبل سفرهما الي اختـه عفاف كي توضبها قبل سفرهم اليها بعد زواجهما.

١٤

بعد زواجهما أنجبا ولدان وبنت، ابكر ابنائهما توأم صبي وفتاه الولد اسمه (حسن) والفتاة أسمها (سميرة) ثم ولد أخر أسموه (خالد)، ولكن حملت فريدة مرة اخرى ولم يكن فاضل يحبذ هذا الحمل ويريدها ان تتخلص منه، فلم يفلح وأنجبت فريدة وفرحت كثيراً بطفلها الرابع الذي أسمته (جمال) كأنها لم تلد اطفالا قبلاً، ولكن لم تدم السعادة طويلاً اذ انها اكتشفت ان طفلها الذي بلغ للتو عامه الرابع مصاب بضمور في المخ.

كآبة حلت عليها من كثرة الحزن، قاطعت الطعام والشراب وظل يوبخها فاضل حتي ضعفت اكثر ووقعت مغشياً عليها وباتت في المشفى اسبوعاً تحت الملاحظة الي ان قامت معافية وردت اليها بعض من صحتها وعافيتها، عادت تمارس حياتها ثانية كأن شيئاً لم يكن، في الصباح تذهب بجمال إلى الحديقة المجاورة لمنزلها تتنزه معه ساعة او اكثر حسب مايسمح وقتها، ثم تتسوق وتعود الي المنزل.

تمنت لو أن مربيتها أولجا لازالت هنا حتي ترعى جمال كما رعتها، فهي كانت الافضل وسط الاف المربيات بلندن، ولكن السيدة (سماح) ليست سيئة فهي تعتني بالاولاد جميعهم وتتعهد جمال بوقت اضافي له، حتي السائق (العم سيد) كما ينادونه ابنائها والطباخ (فتحي) جميعهم بعشقون جمال ويعتنون به اكثر حتى من والده.

" ليتهم يشعرون كم أعاني في تلك الجلسة الدائمة، اطرافي في سُبات عميق لا تستيقظ، وصوتي قابع بحنجرتي لا يتسرب منه سوى همهمات

غير مفهومة، أري من في مثل عمري يتحركون بكل يسر دون التقيد بذلك الكرسي اللعين الذي وضعني بجوار العجائز وانا لازلت صغير، عيون أمي دائمة الحزن على حالي وأبي يلعن يوم ولادتي، يكفيه من الابناء ثلاث ليزيد عليهم برابع< معاق> كما يقول "

غاص (جمال) في شروده ولم ينتبه ان أمه تركته في الحديقة وذهبت لتجلب له تلك المثلجات الذي يعشقها، حتي جاء حفنة من بعض الاطفال المزعجين وظلوا يقلدوه ويتكلمون بالتأتأة والهمهمة مثله واخذ احدهم زمام الكرسي وظل يدفعه ويدور به وما كان من جمال سواء ملامح حزن ودموع ولك صوت صراخ روحه كاد يكون مسموعاً، التفتت فريدة نحو صوت الصخب لتري ولدها دمية يتقافزها الاطفال بينهم، عادت راكضه وهي تسب هؤلاء الاطفال عديمي الاحساس والاخلاق، وتضم صغيرها وهي تبكي وتعتذر له علي غبائها الذي جعلها تتركه وحده وتمضي.

عاد جمال وامه الي المنزل وهو مثقل بألم جديد، السخرية، لايعرف ماهو او كيف جاء ولكنه شعر بروحه تألمه، شعر أن لا احد يريده سوى أمه، أخذته تلك الحنون الي غرفتها وجلست جواره تطعمه، أما جمال فقد ذهب خلف شروده ثانيةً.

" أختنق كلما رأيت امي تبكي ويزيد اختناقي حينما تتحدث وتشتكي لي من تصرفات أبي ولم أستطع أن اهون عليها، يؤلمني معاملة ابي الطيبة لاخوتي الاربعة وهو كلما نظر لي عايرني بعينيه علي ماانا فيه، ماالذي انا عليه حتي يبتعد عني الناس او يضحكون علي او يؤلمي صدري في كل مرة اخرج فيها من بيتي؟ انا فقط اجلس علي كرسي لان قدمي ثقيله

لا استطيع تحريكها، تلبسني امي وتأكلني وتهتم بس لان يداي ضعيفتان هزيلتان، لماذا انا مختلف ياأمي؟"

تشرد فريدة دائماً كلما داعبت صغيرها الضائع في غياهب العجز الي صوت الطبيب الذي يصدح في أذنيها وهو يقول:

< أن طفلك سيدتي مصاب بضمور شديد بالمخ أدى للشلل الرباعي ومن المؤسف انه سيبقي هكذا دائماً>

تنساب دموعها دون إرادتها تنعي صغيرها، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة يقول بين طياتها لا تنزعجي أنا بخير، ثم يعود لحالة جموده ويغوص في شروده الصامت.

أستفاق اليوم علي صوت شجار قام بين أمه وأبيه وهو يمسك بتلابيبها ويصرخ:

- أنتي السبب في ذلك البلاء، ألم اطلب منك يوم علمتي بحملك أن تجهضيه.

- لم استطع انه ولدي اليس لديك قلب؟

- لدي ولكن غبائك هو ماأدي لولادة ابنك معاق، انتي مريضة بالضغط المرتفع وحذرك الطبيب من حمل جديد وان اولادنا السابقين بخير ونجو من اي اصابات ولكن عِندك فاق الحد.

- تعلم جيدا اني لست المسؤوله الوحيدة في هذا العبء، انت ايضاً مشارك معي فيه، الست انت من جلبت لي عقاقير بحجة ان الطبيب وصفها لي لأني ضعيفة واحتاج انا والجنين مايقوينا وهي كانت أدوية

للإجهاض، ولكن مشيئة الله كانت اقوي، وجاء جمال ينير حياتي ويؤلمك انت ويذكرك بفعلتك القذرة.

وهنا حل صمت مطبق بعد ان افصحت الام امام جميع ابناءها عن جريمة ابيهم في حق اخيهم، أجلست سميرة اخيها الصغير جمال علي كرسية بعد طلب ابيها، فصرخت فريدة : الي اين ذاهب مع ابني؟

نظر لها فاضل وقال بحدة : سأتحدث معه وحدنا، اليس هو ابني ايضاً؟

قال كلمتيه وولي نحو الخارج، ذهبا الي الحديقة ثم غاص جمال في شروده كالمعتاد

" اليوم علمت لماذا ابي لا يحبني، أنه اراد قتلي وانا بحشا امي، لماذا؟ كي لا اصبح معاق؟ الله خلقني هكذا كما قالت امي مختلف عن الناس، أهداني الراحة وزال عن جسدي الشقاء، لكن اعطاني روح حبيسة جسدي لا تستطيع الحركة."

دقائق ووجد جمال نفسه امام مبني كبير زلف به فاضل الي الداخل وتحدث قليلا مع احدهم ثم ترك ابنه وعاد للبيت.

عندما وجدته فريدة عائد بدون جمال فبهتت وقالت: اين ابني؟

تركها ودخل الغرفة، فعادت لتردد نفس السؤال، التفت اليها بكل برود وقال : اودعته احد المراكز الطبية للاعاقة.

وقع جسدها دون ارادة منها فوق الفراش لتبدأ في رحلة نحيب لا توقف فأتي اليها وضمها الي صدرة وهو يقول : احاول ان اصلح ماافسدته عزيزتي، هو هناك بأمان وسيجد من يعاملة افضل من معاملتنا له.

حاولت التحدث فلم يعطها الفرصة وقال: قرار نهائي لا رجعة فيه، اعتني بااولادك الاخرين وهو تستطيعين زيارته يوماً كل اسبوع.

تركها تحاول استيعاب مايحدث وخرج من الغرفة، أما عن جمال فقد بدأت روحه الحبيسة تنطلق حينما وجد من هم علي شاكلته ابتسم ابتسامة واسعة تلك المرة حينما تأكد ان هناك الكثير يشبهوه وان الاختلاف لم يعد يؤلمه.

لم تحتمل فريدة كل ماحدث ولم تطق رؤية وجه فاضل من يومها فطلبت الطلاق، ويكأنه منتظر تلك الرغبة ان تنطق بها شفتيها، فأعطاها ماتريد وأوصى ابنه الاكبر بأمه واخوته خيراً ثم رحل.

الي اين يذهب الان؟ رحلت والدته منذ سنوات قليلة الي جوار ربها، توحش عامر المنزل بعد زوجة ابيه فهجر بيت العائلة وذهب الي القاهرة حيث اخته وابنته ليلي وولده بدر الذي عاد مؤخراً من المانيا، الي من يلجأ بعد ان قطع علاقته بالجميع بحجة الانشغال بالعمل، فترك للعنان لقدميه تذهبه الي حيث تريد.

١٥

ذهب فاضل بعد ان طلق فريدة الي نفس المكان الذي رأى فيه دلال أول مرة، يحاول التخلص من متاعب الحياة واظطرابه فيما حدث، يعيد التفكير فيما مضي منذ الطفولة وحتي ان اصبح عمره الخمسين، تجرع كؤوس كثيرة لم يستطع عدها حتي فقد الوعي تماماً.

أستيقظ فاضل ليجد نفسه بفيلا كبيرة بمنطقة المنصورية، تملكها احدى سيدات الاعمال والتي كانت موجودة بنفس المكان وقتما فقد فاضل وعيه، فنقلته الي منزلها وتركته حتي استفاق تماماً، قام يبحث عن اي شخص بالمنزل ليشكره بما فعله ويستأذنه الرحيل فلم يجد سوى فتاه لم تتجاوز الخمس وعشرون عاماً ترتدي جلباب فضفاض وحجاب فسألها؛

- السلام عليكم صغيرتي، هل لي بمعرفة صاحب البيت حتي اتحدث قليلاً معه؟

اجابت بصوت خفيض يكاد يسمعه:

- عليكم السلام سيدي، أمي ليست هنا وهي من اتت بحضرتك بالامس ليلاً وكنت مخمور تماماً، وقد غادرت منذ الصباح ولا أعلم أين هي.

فجلس فاضل علي اقرب كرسي بجواره واستأذن الفتاة بفنجان قهوة حتي يفيق ويسلك سبيل الرحيل، فنادت بكل أدب الخادم يجلب للسيد القهوة وبعض الاسبرين وعصير البرتقال لها فالمغرب شارف علي الاقتراب وكانتهي صائمة.

بعد قليل أنهي فاضل القهوة وهم بالانصراف فأوقفته الفتاة وقالت :

- عفواً سيد فاضل، لاينبغي عليك المضي حتي تتناول الطعام معي فلك عندي حديث طويل أود مناقشتك فيه قبل عودة أمي.

اصاب فاضل الدهشة كيف علمت اسمه، فقطعت حبل افكاره وقالت:

- امي هي من قالت ان اسمك فاضل وانها تعرفك منذ زمن بعيد، وقصت علي حياتك في شبابك، ولكني أود ان أعرف لماذا لم تحترم رأي أفكارك وتسمع لها؟

أنتفض فاضل من مكانه، كيف لها ان تعرف شئ دار بيني وبين نفسي منذ عشرون عاماً تقريباً؟

أكملت الفتاة: حياة الصخب والنلذات لا تدم سيدي فلا تسير خلفها أعمى البصر، فهي تهبك المتعة وتسحق البصيرة، كن فيلسوفاً كن زوجاً كن اي شي ولكن لا تنسى ان تكون عبد الله، لا تنسي التوبة.

استيقظ فاضل من منامه وهو يلهث من هذا الحلم، من تلك الفتاة واين انا، انتبه فاضل ان تلك هي الغرفة التي كانت بالمنام فقام يركض نحو السلم، ركض عليه حتي وصل الي اسفل الفيلا، صدمة لم يكن يتخيلها صورة فتاة المنام معلقة بإيطار علي الحائط ويلتحف جانبها شريط اسود عريض، فنادى علي احد يجاوبه اين هو، خرج من احد الغرف خادم ليجيب عليه، فقال فاضل:

- اين انا؟

- هذا منزل السيدة (شريفة) .

- ومن هذه الفتاة، وهو يشير الي الصورة

- هذه ابنتها (بتول) رحمها الله.

- كيف ماتت؟

- لقد تشاجرت مع السيدة حول ان عملها حرام وانها لن تنال رضا ربها او الجنة حتي تتوب وتعود، فلم تستمع لها السيدة وخرجت فركضت ابنتها خلفها تحاول ان تثنيها عن ذلك المكان الذي اشترته وكان يومها الافتتاح، لم تنتبه سيدتي الصغيرة خطواتها فانزلقت عن السلم وانتهت الي الارض وقد أفضت روحها، فقد ماتت صائمة قبل ان تفطر بدقائق قليلة.

شحب وجة فاضل بعد سماع كلام الخادم وتركه بدون اي رد وحين خرج ارسل خادم السيدة شريفة الي احد سائقيها ليتبع خط سير ذلك الرجل ثم يعود يبلغ سيدته كما امرتهم.

ذهب حيث أفضت به قدماه، الي مسقط رأسه وبيته الذي أصبح مهجوراً ليقيم به، شهور قليلة وعلم بقيام ثورة ضد الرئيس محمد حسني مبارك، لم تتركه بلاده ينعم بالتحول الجديد وحده، فأنتفضت عن ظالميها وقدمت ابناءها بالصفوف الاولي لمناصرتها ضد الطغيان، انها ثورة ٢٥يناير ٢٠١١

في يوم عاصف جائته بشوق يتملكها ورغبة تهز جسدها كزلزال يهز الارض بين كفيه، راقبته ليل نهار ولم تجد له ثغره كي تنفذ من خلالها الي هوى قلبه، ولم تجد فيه غير العابد الأصم عن أي شي لغير كلمات الله.

الوسيم الذي بنظره من عينيه يفتن أجمل الفتيات رغم شيب رأسه وعمره الطاعن، جلست ليلة أعلي خلوته وجدته يناجي ربه في محراب الزهد، لم تحتمل الابتعاد اكثر فذهبت له وحاولت إغوائه بفتنتها ولكنه أوقعها أسيرة عشقه ، أجلسها بين يديه ترتل كلمات الخلاص وصك الحريه

- قولي الله ربي واحد أحد

- فأجابت تناجيه :

- لا معشوق إلا أنت

- اعاد علي سمعها الكلمات ثانية :

- الله ربي واحد أحد

- فأرسلت له كلمات الغرام :

- ليس بقلبي إلا هواك أنت

لم يكل منها ولم يغضب ...

- قال وهو يبتسم :- اليوم عشقي وغدا عشق ربي، أخلعي عنكِ ثوب الغواية واتركي الطهر يغدو بكِ في رحاب العليّ.

- طوقت رقبته بيدها وهمست بأذنيه :

- بل سأخلع ثوبي الحريري لأرتدي جسدك عباءة ناعمه.

- تحاشاها وابتعد وهو ينهرها :

- اذاً لا مكان لكِ في محرابي ولا تعودي إلا و أنتِ عابده زاهده عاشقة لوجه الله، أو لا تعودي.

لم تعرف انه تغير هكذا، تغير شكله وافكاره واخلاقه وحتي نظرته لكل شي تماماً، انه فاضل فيلسوفها اللعوب والذي لم تراه منذ سنوات حتي ضرب الشيب رأسه ونحل جسده وصارت حياته غير ماتركته عليه.

لحظة خروجها من خلوته شعرت بأنها عاريه وكأن الله طردها كالملعون من إحدي جناته، ركضت وركضت ملأت صدرها بهواء الفجر البارد، إرتعش الفؤاد قبل الجسد وجثت علي ركبتيها تبكي فراق فيلسوفها الناسك.

ابتعدت قدر ما حملتها قدمها علي المضي، أرهقها العقل في ذكراه فعادت الي بيت البغاء الذي تديره، وصرفت كل من فيه من بنات ورجال وأذهقت روح كل شي فيه يحث علي رذيلة فانية، ثم أغلقته وسافرت بعيداً.

١٦

لم تكن تعرف الي اين تذهب فنزلت ضيفة بإحدى بيوت قري بسيطه استضافتها، لم تعرف كم مر من الوقت وهي عندهم، كل ماتعرفه ان صاحبة البيت امرأه عجوز كل ابنائها تزوجوا وهاجروا بعيدا، حدثتها كثيرا عن الدين وذكرتها بمعشوقها وبكلماته و ما زاد من استحضار صورته بقلبها انها اعارتها ثوب من قماش خشن نوعاً ما ووشاح تديره علي رأسها وحول رقبتها ، وقالت وهي تعطيها اياه:

- يا ابنتي هذا رداء الأمة الطاهره ، يجب ان تستر بدنها وان تسمو بااخلاقها حتي يرضي عنها ربها.

صاعقة كلماتها اصابت رأسها وجعلتها لا تشعر بنفسها الا وهي تسجد معلنة توبتها، شهور وهي تتلقي علي يدي العجوز تعاليم الدين وكأنها ولدت من جديد، وبعد وقت طويل اعتذرت منها كي ترحل فهناك من ينتظرنها، فودعتها بفيض من دموع وهي تطلب من الله ان يقبلها في ذمره عباده الصالحين ويهديها الطريق الي الصواب ، غدت وراحت حتي وجدته اخيراً ، طرقت بابه ثم سمعت صوته ينادي:

- من بالباب؟

- اجابته بشوق :

- أمة الله

- ماذا تريدين يا عابره؟!

- أريد ان استرد ما تركته لديك.

- اجابها وقد علم من تكون :

- ليس لكِ معشوق هنا.

- معشوقي فاطر السموات ساقني الي عبده في الارض كي يجمعني به.

- اذن اجيبيني من ربك؟!

- ربي هو الواحد الاحد

- فتح باب محرابه بفرح وهو يردد :- والله دعيته في جوف الليل واطراف النهار ان يجردك من كل ذله وعله ويردك اليّ كما يحب ويرضي يا دلال.

- كيف عرفتني؟

- وهل ينسي الرجل امرأة عاش بين احضانها سنين؟

- اريدك ان تعلمني كيف اصل له، أسمي الحقيقي شريفة يافاضل لقد نسيت دلال.

- اذن فمحرابنا يتسع لدرويشين يتمايلان طربا علي صوت اجنحة الملائكه ليعلو تسبيحنا عنان السماء.

وبعد خمس سنوات كان فاضل على فراش الموت ينادي ابناءه وفريدة ويطلب منهم السماح والعفو، وبجواره شريفة تنتحب على فراق محتوم، ناداها وطلب منها ان تكتب ماسيمليه عليها الان، وبعد نفاذ الاجل تذهب

الي زوجته السابقة وتعطيها هذه الرسالة، وبعد ساعة أنفض الاجل وعلت روحه للسماء، بعد شهر من وفاته وبعد ان استردت شريفة عافيتها ذهبت الي منزله التي كانت تعرفه جيداً، طرقت الباب بيد مرتعشة، ففتحت لها فتاه جميلة، سألتها:

- السلام عليكم صغيرتي، هل السيدة فريدة هنا؟

- نعم امي هنا، اقول لها من؟

- هي لا تعرفني ولكن قولي لها شريفة.

ذهلت الفتاه وهي تنادي امها، ثوان وأقبلت فريدة وحيت دلال وسألتها حاجتها فأجابتها دلال:

- أنا شريفة أرملة السيد فاضل.

صدمت فريدة لوهلة من كلمة" أرملة" ثم قالت بلسان ثقيل:

- أتقصدين أن فاضل مات؟

ذرفت دمعة من عيني شريفة واجابت:

- نعم سيدتي، وقد تزوجني قبل وفاته بخمس سنوات، ومنذ شهر فقط وافته المنية، وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة بساعة أملى علي هذه الرسالة وحملني أمانة توصيلها لكم بنفسي.

اعطت شريفة فريدة الرسالة وهي تنهي حديثها ثم انصرفت بهدوء، عادت فريدة الي الداخل وسط تساؤلات ابنائها عن ماهية هذه السيدة ولماذا تبكي امهم، ناولت فريدة ابنها البكر الرسالة كي يقرأها فقال:

"ولدي الغالي حسن:

حان وقت السفر الذي لا عودة فيه ولا وقوف عنه، سأرحل ممتطياً أيامي ولقد منت عليّ الدنيا بساعات قليلة أقضيها في كلمات قد تفوق عمري السالف ولكن ياولدي ستتعكز عليها ماتبقي من عمرك، وأجعلها إرث لأبنائك وأبناء ابنائك، حتي يتعلموا كيف يعيشون ويتعايشون في هذا العالم.

الدنيا ياولدي مثل الطاحون، تضعك بين فكيها وتظل تلعقك وتطحنك وتدر خيرك حتي نسقط من بين حجريها مسحوقاً تغمسه في عرق العمل وتعجنه بمشاكل لا طائل من الفكاك منها كما لا طائل من حلها، لتضعك في الاخر بين الحطب فتشتد وتصير خبزاً سهل الالتهام في افواه اصحاب المال.

هذة الحياة عاهرة، تخضع وتخنع حتي يجذبك سحرها الي منتصف خصرها، فتنهض كالوحش تهتك حياء صباك لتصبح انت الخاضع فتقيدك بطرف ذيلها وترقص بك في حانات الفقر والمرض حتي تنسي جمال عمرك وتنضج قبل الاوان، وعندما تصبح بائس لا حيلة لك او كرامة تلقيك بطول ذراعها نحو أكوام المشردين.

لا يافلذتي تجعلها تغويك ثانية، فهي يسهل عليها اعادتك من وسط المشردين إذا رأت فيك بريق يخطف، حلاوة لسان، طلاوة فكر، او نبوغ وابداع، ستجدها تمنحك كل شي لتهبها ماتملك وتزيد علي زينتها جوهرتك وتظل تأخذ منك وتكنيك بالعطاء القريب حتي تمتصك إلي اخر قطرة، فتضحي كالخرقة البالية لا طائل او نفع منك فتذهب وتلقيك، نعم ستلقيك حيث اكوام المشردين.

ماذا تنتظر من حرباء دانية دونية تتلون علي كل جسد وعلي كل طبقة؟ حينما ترضي عنك وتصادق الاكابر تصبغ عليك لونهم وتصير مثلهم وحينما تغضب تلطخك بالوحل وتنفر منك كل عزيز وكما رفعتك فوق الشجر ترديك قتيلا بجوار جذورها وتضع شاهدة مكتوب عليها، عقاب من خالف قوانين الحياة، وتبقي في عيون الاخريين آثم ناقم علي النعم.

لا تكن لها ياولدي قنطرة بل كن جبلا شامخاً يصعب عليها التقاط قمته من السفح، لابد والصعود اليه والتعب والجهد، وحينما تصل الي القمة وتكون نصب عينيك إلقها من اعلي نقطة فيك أشعرها بحقارتها وان كل مافيها لايلهيك او يغريك فهدفك ليس هي بل هدفك هو سيادتها، فلتملك زمامها.

وفي دقائقي الاخيرة أود ان ألفت انتباهك ياولدي الي شئ اخير، اجعل الدنيا فوق ثيابك لا بداخلها، استمتع بها ولا تبتلعها، رافقها ولا تعشقها، ذكرها كل يوم بالفراق ولا تمني نفسك بالابدية، اقطف ثمارك ياولدي وابتعد عن شجرتها."

من أبيك الذي يستقبل الموت

فاضل"

(تمت)

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
او تخزينا دون إذن خطي من الدار